الجزء الثاني

وطـــن

الرسالة السادسة

وطن بعيدٌ عن الوطن

عزيزتي السيدة ماري،

لم تكن هناك ولايات متحدة أمريكية وقت كتابتكِ لخطاباتك، لكنك عرفتِ بالطبع المستعمرة البريطانية غرب المحيط الأطلنطي، حيث هاجر الكثيرون من بلادك لتأسيس أعمال تجارية ومستوطنات ومزارع.

كثير من أبناء وطنك من المتحضرين وأصحاب المتاجر المتعلمين والتجار وأصحاب الحرف المهرة والمزارعين تطلعوا لحياة جديدة في هذه المستعمرات، كما أن نسل آل كويكرز الذين عاشوا شمال ميدلاندز -القريبة من بيت عائلتك "ثورسبي هول"- أقاموا مدينة شكّلت جزءًا مهمًّا من تاريخ أمريكا، إنّها مدينة الحب الأخوي "فيلادلفيا".

وقدِم الهولنديون والسويديون والألمان أيضًا، وتعلّمت هذه المجموعات من المستوطنين بعد البقاء معًا مائة عام كيفيةَ تقبل الآخر، واحترام الاختلاف في التقاليد والديانات.

وفي سبيل الحفاظ على ما يتمتعون به من ممتلكات واستقلال، ولمواجهة "الضريبة بدون تمثيل برلماني" تلك التي فرضها الملك جورج الثالث ابن الملك الذي كان في الحكم عندما سافرتِ إلى تركيا؛ قام هؤلاء "الأمريكان" بالتحالف معًا والفوز في معركة حامية لنيل استقلالهم، وتأسيس الولايات المتحدة الأمريكية.

لا أسرد لك كل هذا لأسخر من عدم قدرة ملككم القوي على الاحتفاظ بهذه المستعمرة، ولكن لأخبرك أن بلادًا رائعة قد وُلدت نتيجة لذلك، إنها

أول دولـة ديمقراطية في العالم بأسـره، فالمبادئ التـي قامت عليها كانت ثمارًا لجهد رجال رائعين حضر أغلبهم من الشواطئ الإنجليزية.

حينما ذهبت إلى تركيا أول مرة في صيف عام ١٩٧٨م حدث لي شيء عجيـب، شـعرت بأنني لم أذهـب إلى بلد غريب، بل شـعرت أنني عدت إلى وطني أمريكا، ذاك البلد ذي التنوع في العادات والأعراق والديانات.

ولأنـك لا تعرفيـن أمريكا؛ فأنا واثقة أنه من الصعب عليك أن تدركي مـا أتحـدث عنـه؛ لذلك دعينـي أحاول أن أشـرح ذلك لك: أذكـركِ أنني وقت زيارتي الأولى لتركيا كنت أقيم في فرنسا سنوات، أنتِ أيضًا تعرفين فرنسـا والفرنسـيين جيـدًا؛ فقـد قضيـتِ بعـض الوقت في ليـون وباريس فـي طريـق عودتـك مـن القسـطنطينية إلـى إنجلتـرا، وكانـت لـك بعض الملاحظـات الشـائقة الصائبـة حـول المجتمـع والحضـارة الفرنسـية؛ فقلـتِ مثـلًا: ''تتفوق فرنسـا على إنجلتـرا بنظافة أرصفة الشـوارع، وبناء كل المنازل من الحجارة، وأن أغلب منازل الأشـخاص رفيعي المسـتوى تزينها الحدائق''، لكنكِ لم تتحملي السـيدات الفرنسـيات، فهنّ على حدّ قولـك: ''تافهات في اختيار ثيابهنّ ومتصنعـات في زينتهن''، علاوة على انزعاجك من ''الإطراء الغث وقلم لوبران المتكلف''.

يعجبني هذا البلد وحضارته كثيرًا، لكنني أقر أنه ليس مكانًا يسهل على غريب العيش فيه أحيانًا؛ فكثيرًا ما يشعر المرء في هذا المجتمـع بالإقصاء لاختـلاف محـل ميـلاده أو تراثـه أو ديانتـه أو مهاراته اللغويـة، بالإضافة إلى أن الثقافة الباريسية تسعى دائمًا لتحقيق الرقي والكمال.

ومـع أنني أجنبية فقد كان يُتوقـع مني أن أسير وفق نفس هذه القواعد في السعي وراء التميز، وفي بعض الأحيان كان من الصعب تحمل ذلك.

قارنـوا معـي، هـذه تركيا بلد متسـامح ومتقبـل للآخـر؛ عندما ذهبت إلـى تركيـا لأول مرة شـعرت بالتحرر من هذا النسـيج المجتمعي الصارم،

لـم أشـعر بـأن الأشـخاص يراقبـون كل خطواتـي فـي انتظـار أن أخطئ، بل وجدتهم متسامحين وطيبين، مثلهم مثل أهل أمريكا حيث نشأت.

قد يكون من الصعب أن أشرح لك ذلك يا سيدة ماري، لكنني عندما تعرفـت إلـى هذا البلد وقابلـت أهله الودودين، أدركت أنهم سـيفهمونني لأننـا نتحدث نفس اللغة، لقد شـعرتِ أنك ذاهبة إلـى ثقافة مختلفة تمامًا عنك أمَّا أنا فشعرت أنني عدت إلى وطني.

وكلما عرفت عن تركيا أكثر زاد اقتناعي أنها تشبه بلادي أمريكا على مستويات مختلفة:

أولاً علـى المسـتوى الشـخصي، نشـأت فـي عائلـة مـن الوعّـاظ والمعلميـن، ولـم أتخـل عن نظرة سـكان الغرب الأوسـط المتطلعة نحو المدينـة والأماكـن الغريبة والثقافات الأخرى؛ فسـهول الغزلان الواسـعة التـي رأيتها خارج سـيواس بدت لـي كحقول الذرة والقمح الواسـعة في أمريكا، وهدير الجرارات ورائحة الطين والسماد أعادتني إلى البراري في حقل عمي في كانسـاس، أما إزنك فقد بدت مثل قرية صغيرة في أوهايو تصطف أشجار الجميز على جانبي شارعها الرئيس وذكرتني مدينة توقات بقرية من قرى رعاة البقر.

والحياة في هذه القرى تشـبه الحياة في قرى الغرب الأوسـط، حيث أكوام الحبوب والجرارات والمقاهي، يمكنك فقط أن تسـتبدلي المقاهي بحدائـق الشـاي، لكـن الصداقـات المتينـة والحـوارات المتبادلـة حـول المحاصيل والضرائب ستظل واحدة.

يطعّـم النـاس في البلدين أحاديثهم بمقتطفات مـن النصوص الدينية، كمـا يتشـابهون في دفاعهم الشـديد عن القيـم المشـتركة الخاصة بالدين والعائلة، والأطفال، والأرض الجيدة، والمجتمـع، والمشاركة، والبساطة، والإيمـان بـالله وطاعتـه، وحبّ الطبيعـة، والحيوانـات، والحيـاة اليومية، والحب، والزواج، والكفاح من أجل البقاء، وفوق كل هذا حب الوطن.

السؤال الآن: هل أتيت إلى تركيا في رحلتي الأولى متحاملة على الأتراك؟ لا أعتقد ذلك؛ لأنني أمريكية ولست أوروبية، فلست متأثرة بحصار الأتراك لفيينا، بل إنّي لأذكر وقوف الجنود الأتراك جنبًا إلى جنب مع أبناء وطني في كوريا، وانحيازهم إلى جانبنا في الناتو.

مجرد النظر إلى جغرافيا البلدين كافٍ لإيجاد القواسم المشتركة بين الولايات المتحدة وتركيا؛ فأمريكا بلد كبير، وتركيا بلد كبير أيضًا مقارنة بالبلاد الأخرى في أوروبا؛ فهي أكبر من فرنسا وألمانيا مجتمعتين، والبلدان لهما جغرافيا متميزة؛ فكلتاهما تضم سبعة أقاليم متنوعة ومختلفة، وتكوينهما متشابه جدًّا؛ فالشمال الشرقي، والأطلنطي، والجنوب، والبحيرات العظمى، والسهول العظمى، والشمال الغربي، والجنوب الغربي في الولايات المتحدة؛ كلُّها تشبه كثيرًا الأقسام السبعة لتركيا: هضبة الأناضول، والمرتفعات الشرقية، والجنوب الشرقي، والمنطقة المركزية، ومنطقة البحر الأسود، والبحر المتوسط، وبحار إيجه وتراقيا ومرمرة، وتركيا كأمريكا ثرية بالشواطئ والسهول والجبال وبعض الصحاري وبمناخها المتنوع، ويحيط بكلتيهما بحران، وتتعرض كلتاهما لتغيرات مناخية واسعة شديدة، بالإضافة إلى بعض الظواهر الطبيعية الخطيرة كالزلازل والأعاصير والعواصف والفيضانات والانهيارات الثلجية، والولايات المتحدة الأمريكية تمر فيها سلسلتان أساسيتان من الجبال من الشمال إلى الجنوب، بينما تمران في تركيا من الشرق إلى الغرب، والبلدان بهما أنهار عظيمة مثل: دجلة والفرات والميسيسبي وأوهايو، وكلتاهما بلد القمم الجبلية المهيبة: (أرارات، وأرجيز، وأولوداغ، وماكنلي، ورينييه)، وتتخللهما سلاسل من البحيرات (بحيرات منطقة أغيرديير، والبحيرات العظمى، وبحيرات الإصبع)، وبهما حياة برية خلابة وطيور، وبهما وفرة في الموارد الطبيعية كالماء والفحم، بالإضافة إلى المحاصيل المتنوعة من الفواكه الاستوائية كالموز والموالح، وكلّ أنواع الحبوب الممكنة.

وبالنظر إلى تكوين المجتمع فهناك أوجه للتشابه أيضًا: فتركيا مثل أمريكا تعتمد نظام الكفاءة والاستحقاق؛ فالمجتمع يتكون من مواطنين وصلوا إلى مكانتهم بالعمل الجادّ، وليس نتيجة ما ورثوه من طبقة اجتماعية أو مزايا الميلاد كما في فرنسا وإنجلترا بلدكِ.

يوفر البلدان لمواطنيهما قدرة هائلة على الحَراك الاجتماعي؛ فقطاع الأعمال التركي نشِط جدًّا كما في أمريكا، ومستعد أن يدخل القرن الحادي والعشرين بخطى موازية لباقي العالم، وتركيا مليئة بأفراد أقوياء إيجابيين ذوي إرادة، عازمين على النجاح، لا يهابون الوقوع في الأخطاء، تمامًا مثل مواطني بلدي.

لكن ربما يكون أكثر ما يشعرني بتشابه البلدين هو ملامح السكان؛ فهناك أنواع كثيرة مختلفة من الأتراك! لقد تركت كل الثقافات أثرها على موروثات الأطفال الذين وُلدوا هناك: الرومان، والبيزنطيين، والفارسيين، والأرمن، والعرب، واليونانيين، والجورجيين، والبدو القادمين من وسط آسيا، والسلاجقة من إيران، والمنغوليين من الشرق والعثمانيين؛ فكما تتمتع تركيا بالتنوع الإقليمي الواسع فإنّ لديها تنوعًا بشريًّا كألوان الطيف.

معنى أن تكون تركيًّا أن تكون مواطنًا في الجمهورية التركية، فالكلمة تشير إلى الجنسية لا إلى الهوية العرقية.

الأتراك ورثة العادات الثقافية الدولة العثمانية ومُثل التجديد التي تبناها أتاتورك والغرب.

نحن مواطنو الولايات المتحدة الأمريكية نتفهم ذلك؛ فكلنا أتينا من أماكن مختلفة بلغات وديانات وثقافات مختلفة، واتّحدنا بهدف بناء بلد عظيم.

ليس التشابه في سمات الأشخاص والأراضي فقط هو ما يجعلني أشعر أنني في وطني، بل إن مشكلاتنا متشابهة أيضًا؛ لقد رأيت قرى معدمة مليئة بأطفال جياع وبيوت مهدمة، فالفقر في تركيا الشرقية كما هو في أبالاتشيا، وحجم التباين بين الأغنياء والفقراء صاعق كما في أمريكا.

كذلك واجه البلدان مؤخرًا كوارث طبيعية قاسية: زلزال أزميت عام ١٩٩٩م، وإعصار كاترينا الذي ضرب نيو أورلينز عام ٢٠٠٥م، والمجتمعان يعانيان من مشكلات داخلية وعنف ونزاعات.

وكلانا وا أسفاه لديه مشكلات مع مجموعات ترفض الانضمام لحلم الديمقراطية، ومع ذلك ما زالت أمامنا فرصة لتحقيق هذا الحلم.

لدى عودتكِ إلى الوطن كتبتِ إلى القس كونتي "لا يسعنى سوى النظر بانحياز إلى بلادي"، وذكرت أيضًا أن جُل ما نحصل عليه من الترحال هو "رغبة عقيمة في دمج المتع المختلفة وأسباب الراحة في أماكن مختلفة من العالم، ومع ذلك لا يمكن تحقيقها في أيّ منهم".

أما أنا فلا أعود إلى بلادي بعد سفري إلى تركيا لأقارن نقاط تفوق بلادي، وعمومًا فقد ساعدني السفر إلى تركيا أن أشعر بالفخر بالإنجازات التي حققتها بلادي والبلد الذي زرته للتو.

إن أوجه الشبه بين البلدين تبرز لي بوضوح شديد الدروس التي يمكن أن يتعلمها بعضنا من بعض، حتى نبني مجتمعًا أفضل للأمم التي نحيا فيها، ذاك الشَّبه ساعد غريبًا مثلي أن يشعر أنه من أهل البلد.

على أية حال فالشخص الذي يشعر دائمًا أنه في وطنه بعيدًا عن وطنه مواطن أمريكي من أوهايو في بلاط السلطان عثمان.

صديقتكم
كاثرين براننج

الرسالة السابعة

وطني الحبيب!

عزيزتي السيدة ماري،

علـى منحدر جبلـي خارج منطقة أرضروم تظهـر لافتة ضخمة مكوّنة من مجموعة أحجار مطلية باللون الأبيض على شـكل حروف، كتبها بكل عنايـة وحب جنود الجيش، ويمكـن رؤيتها على بُعد أميال، واللافتة عبارة عن كلمة واحدة: *Türkiyem* (تركيتي: وطني الحبيب).

''تركيتي: وطني الحبيب'' يا لها من كلمة بسـيطة تعبر عن فخر المرء ببلاده! لا داعي لقول المزيد، فكل شخص يمكنه تفسير الكلمة كما يشاء.

حينمـا كنـت أحدق في هذه اللافتة أدركت أن لها دلالة خاصة عندي بعد أن كوّنتُ مفهومي الخاص عن كلمة ''بلد''.

''تركيتـي: وطني الحبيب'' ليسـت تركيا التـي يعرفها ٩٩٪ من زوار تركيا وربما ٩٥٪ من الأتراك أنفسـهم؛ فهي ليسـت تركيا التي تضمّ مدنًا رفيعة المسـتوى وغنية ومصقولة مثل إسطنبول وأنطاليا وبورصة وأنقرة، بل إنها تركيا التي تضم سـهول الأناضول؛ فقلبي معلق بشـرق أنقرة.

أنتِ -كمعظم السائحين- سافرت إلى العالم الواسع المتنوع متعدد الجنسيات لمدينتي القسطنطينية وأدريانوبل ''أدرنة اليوم''، وقلتِ في رسالة كتبتها في أدرنة: ''إن أخلاق البشر لا تختلف كثيرًا كما يريد كُتّاب الرحلات أن يقنعونا''، ومع ذلك لم تحاولي المخاطرة بالابتعاد عن هذا الحيز العالمي الغني لاستكشاف الفرق، أو للتعرف إلى أهالي المناطق الريفية المجاورة لتلك المدن، أعتقد بشدة أنكِ كنت ستستمتعين كثيرًا لو أنكِ فعلت ذلك!

معظم السائحين يعرفون تركيا بما يرونه في إسطنبول والشواطئ الجنوبية، ولكن تركيتي مختلفة؛ إنها تركيا الواقعية التي يعيش فيها المرء على الأرض يكدح ويعمل بجد، إنها تركيا الهضاب الجافة لا تركيا الشواطئ المترفة.

من السهل الافتتان بلؤلؤة العالم إسطنبول، مبتغى كل إنسان، ولكنني وقعت في حب السهول الجرداء التي تشبه حقول وسط الغرب الأمريكي، وتعكس القوة المطلقة للطبيعة وحلم الإنسان في العمل لتحقيق المزيد، أغلب الناس ينظرون إلى هذه السهول فيرون أراضي مكشوفة مملة، لكنني أراها مساحات مفتوحة حرة لا نهاية لها كالبحر، مليئة بالآمال.

حينما ذهبت إلى تركيا لأول مرة كانت قلة من الأجانب تأتي إلى مثل هذه الأقاليم، أما الآن فالجميع يهرع إلى إسطنبول لقضاء ست وثلاثين ساعة أو العطلة الأسبوعيّة، فها هم الأجانب يملؤون أسواقها، ويعيشون حياة المغتربين بكل معالمها، وهم يتركزون في الأغلب في إسطنبول التي تعد في الواقع مركزًا حضاريًّا رفيعًا لا يقل مستوى عن باريس ونيويورك.

لطالما شعرت أن إسطنبول نقطة التقاء تجمع بين سمات نيويورك والجزائر والبندقية، لكنها لا تزال منطقة حضرية خاصة بكل سماتها المتفردة.

والوضع في ''تركيتي'' مختلف؛ فأنا أعشق السفر إلى المدن الصغيرة حيث الأسواق المحلية وعدد محدود من المطاعم أو المقاهي.

أعتقد أن الأمريكان عندما يسمعون اسم تركيا يفكرون في مكان غامض غريب، ولا يعرفون فيها سوى مدينتين هما إسطنبول وأنقرة، لكنك قد تندهشين عندما تعلمين أن هاتين المدينتين لا تمثلان تركيا الحقيقية الكبيرة، تمامًا كما يستحيل أن تمثل مدينتا نيويورك وبوسطن أمريكا التي ترعرعت فيها، فالريف الممتد خارج المراكز الحضرية الكبيرة يكاد يكون بلدًا آخر؛ لهذا تحيّر الناس في سبب تفضيلي للقرى المبنية بالجص والسهول المتربة الجرداء على الجبال والبحر والمياه الفيروزية للبحر الكاريبي والريفييرا بل على جنوب تركيا أيضًا، ربما أكون شخصية مختلفة غريبة، لكن ثراء التجارب التي مررت بها في تلك المناطق ليس له حدود.

''تركيتي'' بلد يقيم مهرجانات من كلّ لون وشكل؛ فعلاوة على المهرجانات الفنية الكثيرة المرموقة التي تُقام في مدنها الكثيرة مثل مهرجان ''البرتقالة الذهبية'' السينمائي في ''أنطاليا'' هناك مهرجانات متعددة لتكريم الفن الشعبي وأبطاله ''نصر الدين خوجا، ويونس أمرهْ، وحاجي بكتاش''، أو للاحتفال بالمنتجات المحلية وتميزها مثل: مهرجان مصارعة الإبل في سلجوق ودينيزلي، والبجع في بريجيك، وحلوى ''باور جام'' في مانيسا، ورياضة جيريت ''نوع من أنواع البولو يُمارس بطريقة الرجبي'' في قونيا وأرضروم، والأفاعي في ماردين، والفراولة في بارتون، والشاي في ريزي، والمشمش في مالاطيا، والطماطم في توقات، والبندق في أوردو، والعسل في تشانقورو، والطهاة في مينجين، والخزف في كوتاهيا، ومحصول العنب في كابادوكيا، والبطيخ في ديار بكر ''بلغ وزن ثمرة البطيخ الفائزة العام الماضي إلى ثمانية وتسعين رطلًا''، ومصارعة الثيران في أرتفين، والتين في جيرمينجيك، والفحم في زونجولداك، ورقص الدراويش ''المولوي'' في قونيا؛ لا شك أن هذه المهرجانات تتفوق على مهرجان ولاية أوهايو بفرق شاسع.

في ''تركيتي'' لا ينتظرني البحر، أو المنتجعات، أو الأندية الراقية، أو أشخاص رائعون يرتدون أثواب السباحة، أو أندية الرقص، أو منحدرات التزلج، بل إن السحر يكمن في أشياء أخرى؛ إنه يكمن في المنازل الخشبية، والمراعي الجبلية، وأشرطة النذور المربوطة في الأشجار، وينابيع المياه المتدفقة على جانب الطريق، والشعراء الغنائيين والدراويش، والجسور المُحْدودبة، وأحواض المياه، والغابات والأنهار الجارية، وعازفي "الساز"، والطيور المغردة، وأيام وجبات الأرز اللذيذة، واحتفالات الختان، والنوافذ والمداخل المليئة بالأزهار المزروعة في علب زيت زيتون فارغة، وأبراج الساعات، والمطاعم ذات الغرف الخاصة بالنساء، وحدائق الشاي المظللة بتعريشات العنب، والنساء اللاتي تبذرن البذور في الحقول أو تفرزن المشمش أو البصل، والمنازل ذات الهياكل الخشبية، والأودية الخضراء الخصبة، والكِليم المغسول وقد وضِع في الهواء ليجف، والستائر اللاسيه، والنساء المحجبات، والأبواب المصنوعة من الطوب المحفور، والأصوات الخافتة، والنوافذ المظللة بالمشربيات، والسهول المتربة، والأسقف المكسوة بالآجر، والحدائق المسوّرة التي تتسلق جوانب التلال، وحافلات القرى المكتظة بالأطفال والحيوانات وحقائب البطاطس والإطارات الاحتياطية أو أجزاء المعدات، والبحيرات المالحة في منتصف السهول الجافة، واللحم المشوي على أوراق العنب والغار، والعامل الذي يسير وحيدًا على حافة الطريق وبيده حقيبة أدواته، والأسقف الخشبية المحفورة والمطلية، والعربات التي تجرها الخيول، والينابيع الساخنة، والكهوف، والمزارعين المتأرجحين في الشاحنات في طريقهم إلى الحقول، والفتيان والفتيات الذين يكررون آيات القرآن ليحفظوها عن ظهر قلب، ومساقط المياه، وأصوات الطبول العالية المعلنة عن حفل ختان أو زفاف، ومستنقعات القصب، والجرارات والعربات

التـي تجرها الحمير، وحقـول البطيخ والطماطم، والمـدن المزينة بالقلاع والحصـون التي تعلوها أعـلام خفاقة برمز الهلال، والهدوء الشـديد الذي تكاد تلامسـه بيديك، والذبـاب الطنان، والكِليم الملـون بألوان قوس قزح المشرقة الذي يغطي أرضيات المساجد، وكبار السن المتكئين على العصي فـي طريقهـم إلى نادي القريـة للقاء أصدقائهـم، والأرصفـة المنثور عليها لب دوار الشـمس، وتربة الجنوب الشـرقي السـاخنة الملتهبة، والأحداث العائليـة المفجعة، وحفلات الزفاف الرقيقـة، والأغصان القصيرة، والتراب الأصفـر، وحافـلات نقـل الـركاب داخل القـرى المنطلقة سـريعًا، وخرير الأنهـار، والمناظـر الخلابة المتعاقبة في الطرق الجبليـة الملتفة، والأخرفة مجزوزة الصوف أو مذبوحة، وتسـاقط الثلوج بسـرعة وكثافة تسد الشوارع في ساعات قليلة، والدراويش والبكتاشيين، والرجال الذين يقضون ساعات في رسـم آيات من القرآن بالخطوط العربيـة المزخرفة، والمنازل العثمانية ذات الهيـاكل الخشـبية، والطرقـات المرصوفـة بالحصـى التـي سـار فيها جنود الحيثيين والفرس واليونان والرومان والسـلاجقة والعثمانيين وجنود أتاتورك، والسهول الذهبية المترامية عبر الأفق، والينابيـع الساخنة، والهزات الأرضية، والتاريخ الذي يطل عليّ من وراء كل حجر، والأسواق الأسبوعية الصاخبة، وقمم الجبال المكسـوة بالجليد، ومتاجر الحلوى والمكسـرات، وغابـات التَّنُّـوب الكثيفة، والشـعاب الجبليـة، وأبراج المقابـر المخروطية المليئة بالأضرحة المخضرة، وأسـواق الخضراوات المفتوحة، والأسـواق المسقوفة، والشوارع الخلفية التي تعج بالنجارين والحدادين وصنّاع السرج والسـباكين، وكلاب الرعـي الكنجال بلون السـهول التـي تلاحق الخرفان مغبـرة اللون، وبيوت الطيـور المليئة بالنُّحَام الزهري، والأفق الذي تغشـاه الحـرارة، وقطعـان الغنم عريضة الذنب وتراها ترغو، وطيور السـنونو التي تهبـط سـريعًا، والأطلال المهجورة، ورؤية البحيـرات الزرقاء المتلألئة من

أعلى الطريق، والنساء اللاتي يراقبن الطريق من مقاعدهن خلف إطارات النوافذ الغائرة، والمقابر المليئة بالشواهد العتيقة المتهدمة، والسهول متناثرة الأجمات، والغابات شبه القاحلة، والنساء الكرديات اللاتي يرتدين ملابس بألوان الزهور البرية المذهلة، والمروج الواسعة حيث تركض الخيول والأمهار بِحُريّة، وشجيرات الزهور المتفتحة في كلّ مكان، وثمار التوت الأبيض الطازجة، ورائحة الدم والخبز الطازج والتراب والسماد وقشر البطيخ، والمنازل المشيدة بالخشب، والحجارة، والطوب اللبِن، والتلال الخضراء المتقاربة، والخيام السوداء والأخرفة البيضاء، والبدو الرُّحل وأصحاب المتاجر، والسهول المنخفضة الممتدة إلى سلاسل تلال لا تنتهي، والمنازل ذات الأرضيات الترابية المضغوطة، وأسراب الإوز أو الأغنام المتهادية التي تسد الطرق، ونقطة التقاء السماء بالأرض، وورق الإعلانات الصغير المصفر الخشن، وعصير المشمش الطازج، وتسلق الشعاب الجبلية، ورؤية البانوراما الكاملة للوحة السهول الخضراء المرقعة من الأعلى، والرائحة المنبعثة عن اشتعال السماد، ومذاق الماء من كوب مملوء من نبع متدفق على جانب الطريق، والبدر الكامل الذي يبدو حجمه وضوؤه ضعفهما في أي مكان آخر في العالم، والمناشف المعلقة أمام متاجر الحلاقين لتجف، والخيل المكتسية بمنسوجات مطرزة وخرز أزرق، والجسور القديمة، وتيجان الأعمدة الساقطة، والكهوف الغامضة، وآثار الحضارات البائدة منذ ألفي عام، ومظاهر الطبيعة ذات الأصوات العالية مثل الضفادع والحشرات والطيور والمياه الجارية، والمزارعين الكادحين، والحقول البنية التي تتناثر فيها أزهار دوّار الشمس الصفراء وثمار البطيخ الأصفر، والزوابع الترابية، والمدن التي يوجد فيها طريق تصطف على جانبيه سلسلة من المباني القديمة التي تعود إلى ثماني مائة عام ومبانٍ سكنية إسمنتية حديثة، والمدارس المكوّنة من فصل دراسي واحد، وأبراج تخزين

الحبوب، والجمعيات التعاونية الزراعية، والسهول الشاسعة جدًّا ولا تتسع لها عدسة الكاميرا متسعة الزاوية أو لا يمكنني رؤيتها كلها بنظرة واحدة.

هذه هي ''تركيتي'' التي أحبّها حبًّا جمًّا، البعيدة عن إسطنبول المتحضرة الرفيعة المستوى، كيف تستطيع الشواطئ المحمومة وملاهي الرقص المليئة بالأجانب أن ترقى لمستوى إثارة أيّ مما ذكرت؟ يا سيدة ماري، أتمنى لو استطعت أن أكون مرشدتكِ في أرجاء ''تركيتي''، أنا واثقة أنك كنتِ ستعشقينها كما أعشقها.

صديقتكم
كاثرين براننج

صفائح زيت الزيتون

منزل شاكر أغا العثماني، بيرجي عام ١٧٦١م

سوق عثماني، أماسيا

الأم وبنتها، منطقة جاي

نزل ''تاش خان''، أقشهر عام ١٢٥٠م

مشهد من الشارع، بورصة

عبور جسر كوش في أماسيا

حارس القبر، ألانيا

مشهد من الشارع، إزنك

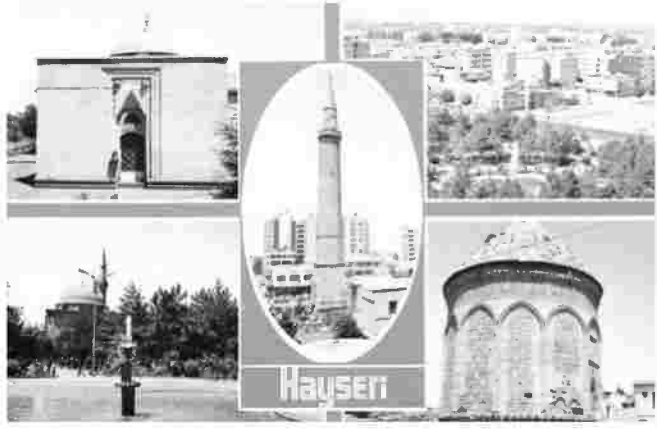

بطاقة بريدية من عام ١٩٧٨م

يوم السوق، منطقة شاي

شارع الأطباء قسطموني

مشهد الغروب على بحيرة بَيْشِهير

مشهد من الشارع، كوتاهيا

منبع نهر الفرات، بالقرب من أرزينجان

الرسالة الثامنة

تبنتني عائلة تركية!

إلى سعادتْ صوباشي هانم أفندي

عزيزتي السيدة ماري،

ثمة أمر يتعلمه المرء سريعًا جدًّا في تركيا، ألا وهو أن البلد لا يديره ساسة الحكومة أو أباطرة الأعمال أو الشيوخ على مآذنهم العالية، بل تديره الأسرة، لن تصادفي مجتمعًا آخر يتسم بقوة وتماسك الروابط الأسرية في تركيا.

إن تماسك الأسرة أفضل سمة في أي مجتمع مهما كان مركزه على سطح الأرض، لكن الروابط الأسرية في تركيا أقوى منها في أي مكان آخر، إنك لَتجد كل أسرة تُدار كأنَّها شركة مصغرة.

إن القيم الأسرية طريقة حياة وليست مجرد كلمات تتكرر في الخطاب السياسي أو الديني كما هو الحال في بلادي فالأسر عندنا أكثر تحررًا وتفككًا.

لقد اختبرت هذين الهيكلين الأسريين بنفسي يا سيدة ماري؛ فأنا أنحدر من أسرة مسيحية مترابطة من الغرب الأوسط، ومع أن والديَّ كانا يتيمين فإن العمات والأعمام وأبناء العمومة كانوا بمنزلة مجموعة مترابطة سعيدة؛ ففي أيام الآحاد بعد القدّاس كان اثنا عشر شخصًا منّا على الأقل يلتفون حول مائدة أحدنا في "دعوة الأحد" الكبيرة، ومقابل هذا لي أصدقاء كثر علاقتهم بأسرهم غير وثيقة.

سيدة ماري، لقد تحديت والدكِ وهربت مع السيد ورتلي، أما أنا فتركت أسرتي في سن مبكرة لأعيش في الخارج، نحن الاثنتين نشأنا في ثقافات تشجع الأطفال على الاستقلال عن أسرهم منذ الصغر، والآن أعيش في مدينة تبعد ألف ميل عن أقرب قريب لي؛ لهذا قد يكون من الصعب علينا أن نفهم الروابط الإسمنتية التي تربط الأسر التركية.

لقد حالفني الحظ "وتبنتني" عدة أسر تركية، فأتاح هذا لي الفرصة أن أقارن بين أوساط الأسر التركية والغربية.

للأسف لم يحالفكِ الحظ مثلي يا سيدة ماري، صحيح أن الجميع استقبلك بالترحاب في بلاط وقصور السلاطين والحريم والسفراء، لكنك لم تجلسي حول مائدة الإفطار مع أفراد أسرة تركية، ولم تشاركيهم جلسات احتساء الشاي وسرد القصص، ولم تتح لك الفرصة لحمل أطفالهم الرضع بين يديك، وهكذا حُرمت من جزء كبير من تركيا.

شعرت أنا أيضًا بالترحاب والاحتفاء من عدة جوانب في منازل صغيرة مكونة من غرفة واحدة كما شعرت أنت في صالونات الباب العالي، وكثيرًا ما يكون الاهتمام الذي تحيطك به الأسر التركية هائلًا أحيانًا، إنَّه شعور رائع.

ما سِرّ قوة الروابط الأسرية في تركيا؟ أعتقد أن هذا راجع إلى إحساس الأتراك العالي بمعنى الأمّة "*ulus*"، والشعور بالتحالف القبلي الذي ورثوه عن أسلافهم الأتراك.

والأمة تنظيم مجتمعي يحدد وظائف كل الأشخاص الأتراك: مثل التنظيم الإداري، والهيكل، والوظيفة، والسياسة، وأنماط حركة الرعي والهجرة، والقوات العسكرية، والخلافة، والسلطة.

مفهوم الأمة هو ما ساعد الأتراك على الهجرة بنجاح إلى الأناضول وتأسيس الدولة السلجوقية نواة تركيا الحديثة.

أما مفهوم الأمة اليوم فتمثّل في شكل كل أسرة على حدة ، وقادتها هم الآباء الأتراك المعروفون باسم "بابا".

في هذا الكَيان تجدين كلّ العلامات المميزة في الحياة –كالميلاد والختان والزواج والوفاة– منظمة كما كانت في أمة الماضي، وتميزها طقوس محكمة ومكثفة، فالأسرة التركية الحديثة التي يديرها الأب ضاربة بجذورها في تقاليد "الأمة".

مظاهر التبجيل المطلق للوالدين في تركيا مقدسة كقدسية أي أمر قرآني، فرجل الأسرة أو "بابا" يُعامل باحترام شديد وخضوع، يليه في السلطة الابن الأكبر "آبيْ: أخي الكبير" الذي يكون بمنزلة نائب عن الوالد في غيابه، وهذا الابن لا يُناديه إخوته وأخواته باسمه مطلقًا، بل دائمًا ما يُنادى بلقبه "آبي: أخي الكبير".

ثمة أسماء أخرى تُطلق على مختلف أفراد الأسرة، تعتمد على درجة قرابتهم، سواءٌ كانت من جهة الأب أو الأمّ؛ فلن تجد في تركيا أحدًا يُدعَى "العم" أو "العمة" أو "أخا الزوج" فقط، بل يحصل كل فرد في الأسرة

على لقب دقيق يلتصق به، ويحدد دوره في الأسرة.

وهـذه المصطلحات المختلفة التي تصف علاقات القرابة من أصعب التحديـات فـي تعلم اللغة التركية وفهم الثقافة؛ فهناك أربعة ألقاب لأخت الـزوج وحدها! وهكذا يا سـيدة ماري، يمكنك أن تـري أنه ليس مجتمعًا مفككًا.

إن الرباط الذي يجعل الأسـر التركية متماسكة لهذا الحد بسيط جدًّا، هو الحب والاحترام.

فـي الواقـع إنّ هاتين الكلمتيـن المهمتين اللتيـن تعلمتهما في بلدي تشـكلان أساسًـا كاملًا للثقافة التركية بأوسـع معانيها، تسـعى كل الأسـر جاهـدة لتدريـب أبنائهـا علـى هاتيـن القيمتيـن المهمتين: احتـرام الكبير والعطف على الصغير، فظاهرة تقبيل أيدي الوالدين والأقارب كبار السـن شائعة في تركيا، وطقوس تقبيل يد الكبير التي تتضمن الانحناء وتقبيل اليد ثم رفعها لتلامس الجبهة من أكثر الدلالات المؤثرة التي رأيتها في حياتي.

تسـعى الأسـر التركية كما في ثقافات عدّة لتوفير كل الفرص المتاحة لأطفالها، حتى إنها تبذل في سـبيل ذلك جهدًا كبيرًا، ويسـعدني أن أعلن أن أقـوى حافـز يحرك الآباء الأتراك هو ضمان حصول أبنائهم على تعليم جيد، فالآباء مستعدون لفعل أي شيء لتوفير هذه الفرصة لأبنائهم، فمنهم من يشـغل عدة وظائف ويعمل طوال الوقت لكسـب المال اللازم لشـراء الكتب، وحقائب المدرسـة، وتوفير نفقات الـدروس الخصوصية الباهظة اسـتعدادًا للاختبـارات، ودفـع مصروفـات المـدارس الخاصـة، أو حتى إرسال الأبناء للدراسة في أمريكا؛ وهو حلم كل والد.

يساهم الأخ الأكبر ''آبي'' أيضًا في مساعدة إخوته وأخواته الصِّغار، ويتشرف بدفع نفقات دروس أخته من ماله الخاص بدلًا من شراء أغراض شخصية لنفسه.

علاوة على ذلك يؤمن الأتراك بقوة بأهمية الشهادات العليا؛ والأسر مستعدة -خاصة أسر الطبقة الأرستقراطية- لإرسال أبنائها للخارج للدراسة، ويشارك في هذا التشجيع التعليمي كل أفراد القرية، وإذا كان أحد الأبناء لا يتمتع بالقدرة أو المهارة التي تؤهله للالتحاق بالجامعة فإن أسرته تحرص على مساعدته في تأسيس عمله الخاص، بل تبحث له أيضًا عن شريكة حياة مناسبة.

ذات مرة كنت أزور مسجدًا في بُنيان فدنا مني شخص وبدأنا نتحدث، ثم ذهب إلى بعض الأطفال المتحمسين الواقفين على مقربة منا وقال لهم: ''أترون! إنها أمريكية وتتحدث التركية! ماذا تفعلون أنتم لتكونوا متميزين؟ انصرفوا وعودوا إلى منازلكم لتذاكروا!''.

ومن الملاحظات الأخرى أن أفراد الأسر التركية متلاحمون ومترابطون بشدة؛ فهم يتصلون عدة مرات بعضهم ببعض على هواتفهم النقالة فقط للاطمئنان وسماع صوت القريب المحبوب، وهم يعسكرون في غرف المستشفيات عندما يمرض أحدهم، ويراعون المريض بطريقة تعجز عنها الممرضات المنهكات، كأن يراقبوه ويغسلوه وينظموا مواعيد تناوله الدواء، إنها الرعاية الطبية النابعة من الحب.

ولا أظن أن أشخاصًا كهؤلاء يفكِّرون في أهمية مجموعات الدعم أو فكرة التمريض الخارجي؛ لأن الأسرة تتولى مسؤولية هذا الدور في عملية الشفاء.

ومن العادات السعيدة الأخرى التي أستمتع بحضورها حفلات الختان، فبعد عامين من مغادرتكِ إسطنبول يا سيدة ماري أقام السلطان أحمد الثالث –الحاكم حينها– واحدًا من أكبر الاحتفالات في التاريخ العثماني؛ إنه احتفال مشترك بختان أبنائه الأربعة، استمر الاحتفال خمسة عشر يومًا، واشتمل على مواكب استعراضية، ومفرقعات، وسباقات بالقوارب، وعزف، ورقص، وسباحة، من المؤسف أنك لم تشاهدي كل ذلك!

صحيح أن احتفالات الختان اليوم كبيرة وتُجرى في فنادق فاخرة، إلا أنني أستمتع أكثر بالاحتفالات المتواضعة التي تُجرى في نطاق الأسرة، فأي صبي يبلغ الثامنة من العمر تقريبًا يحظى بهذه الطقوس الخاصة بهذه السنّ، وتحرص الأسر على الاحتفال بذلك حتى تكون مناسبة لا ينساها الصبي مطلقًا، فيلبسونه زيًّا تقليديًّا مزركشًا ويغرقونه بالحلويات والهدايا.

وإذا كانت إحدى الأسر أفقر من أن تتمكن من إقامة حفل لابنها تكفل بالحفل أحد الأثرياء المحليين أو تتحمل المدينة نفقات الحفل؛ لذا كثيرًا ما يسمع المرء في أيام الآحاد من فصل الصيف أصوات أبواق السيارات، ويرى صبيانًا سعداء متأنقين مع أسرهم في زيارات للمواقع المقدسة في طريقهم لحفلات الختان.

أما أكبر دليل على قوة روابط الأسرة التركية فهو مائدة الإفطار؛ قدّمتِ وصفًا في إحدى رسائلك لمأدبة عشاء مع السلطانة، لكنني أؤكد لك أن مائدة الإفطار في تركيا تحظى بنفس القدر من الاهتمام ومراعاة التقاليد، فوجبة الإفطار في تركيا تحدد مسار باقي اليوم، يجتمع فيها كل أفراد الأسرة، والحبّ يملأ المكان، وكل ثمرة زيتون على المائدة تبشر بالخير الذي سيعمّ اليوم وبالسعادة التي ستنتشر فور رفع المائدة، لا أحد يأكل وحده، ولا أحد يشرب فنجانًا من القهوة ويتناول قطعة خبز محمصة في الطريق إلى الخارج.

لا أحد يبدأ يومه بدون جرعة من الحب، ولا أحد يبدأ يومه دون المشاركة في مظهر من مظاهر الترابط الأسري، وموائد الإفطار الفاخرة في الفنادق التركية ليست سوى امتداد لهذه العادة الأسرية، وستجدين أن أكثر الفنادق تواضعًا في أفقر الأحياء تقدم وجبة الإفطار بكل عناية واهتمام وحب.

قد يكون "بابا" هو من له الأمر في الأسرة، لكن الأطفال في الواقع هم أصحاب الكلمة الأخيرة؛ ذلك أن الأتراك غارقون في حب أبنائهم ويدللونهم ويسمحون لهم بفعل أي شيء.

إن أوّل سؤال يُوجّه إلى أي امرأة هو "كم طفلًا لديك؟" كما أن قبور النساء العثمانيات مزينة بنقوش أزهار، ترمز كل زهرة إلى كل طفل ولدته المرأة، وفي القرى تُزرع شجرة كلما وُلد طفل.

أتعلمين أن تركيا هي البلد الوحيد في العالم الذي يخصص يومًا رسميًّا للاحتفال بالسيادة الوطنية للأطفال؛ ففي كل عام في الثالث والعشرين من شهر نيسان/أبريل تستضيف تركيا عدة مهرجانات وفعاليات لتكريم الأطفال وضمان مستقبلهم وحريتهم ورفاهتهم.

ينتشر الأطفال في كل أنحاء تركيا، فنسبة ٧٠٪ من السكان تحت سن خمسة وثلاثين عامًا، وبوجه عام كل الأطفال ساحرون بأعينهم الواسعة وابتساماتهم العذبة، وهم دائمًا يتلقون الأحضان والقبلات والرعاية والمداعبة.

أخبرني بستاني تركي ذات مرة أنه اختار هذه المهنة بالذات؛ لأنه شعر أن الأزهار كالأطفال، كل زهرة مختلفة وجميلة وتحتاج إلى الحب والرعاية، ففكر أنه لا يوجد في الحياة عمل يبعث على السعادة أكثر من عمل البستاني.

يتسم سلوك الأطفال الأتراك بالانضباط بوجه عام؛ سافرت في رحلة بالحافلة مدتها ثماني ساعات ويجلس في المقعد خلفي طفل في الثالثة من العمر ولم أسمع صوتًا طوال الرحلة، فالأطفال الأتراك لا يثيرون الجلبة في الأماكن العامة، بل يجلسون في هدوء مع ذويهم دون الحاجة إلى ألعاب أو أشياء لشغل انتباههم أو تسليتهم، بل يتعلم الأطفال الاعتماد الكامل على الذات منذ سن مبكرة، وهي من أعظم الميزات، ولا يمر يوم دون أن ترَيْ مجموعة أطفال تلعب كرة القدم، ففور أن تتوفر مساحة كافية وكرة يبدؤون اللعب، وقد تكون الكرة مجرد حجر أو قصاصات أقمشة بالية ملفوفة معًا، وقد رأيت أطفالًا في القرى يلعبون بعصي، وقطع من حبال، وقشر جوز، وأحجار، مبتكرين ألعابًا خيالية تؤنسهم لساعات.

عندما يغدو الأطفال الأتراك مراهقين غالبًا ما يحتفظون بنفس الرقة والعذوبة؛ ويندر أن ترَيْ شبابًا يضحكون بصوت عالٍ، أو يلقون النكات الخارجة، أو يتبادلون السباب، أو يتدافعون، أو يتعاركون، أو يتصرفون بشكل غير لائق على الملأ.

والكلمة التركية التي تصف الشباب هي ''*delikanlı*'' وتعني ''صاحب الدم الحامي''، لكن تجربتي مع المراهقين الأتراك أثبتت أنهم في قمة الأدب، غير أن هناك مجموعة من الشباب اليافعين المزعجين الذين لاحقوني باستمرار، وأصروا أن يرشدوني في تركيا بحجة تحسين لغتهم الإنجليزية، أحيانًا يكونون مزعجين جدًا ويرفضون الابتعاد، بالطبع يصعب عليّ تجاهل هذه الرغبة الحماسية في تقوية اللغة، وأرضخ في النهاية وأقضي معهم بعض الوقت، لكنه يكون أمرًا مرهقًا ومزعجًا عندما يزيد عن حده، فكلما قضيت وقتًا مع أحدهم يظهر غيره، لكنهم لا يتسببون في أي أذى.

ثمة موقف حدث مع بعض الفتيان المراهقين في إسطنبول من شأنه أن يسلط الضوء على طبيعة الشباب الأتراك وتربيتهم: ركبت القطار المعلق ذات مرة لصعود التل، وكانت هناك مجموعة من المراهقين الصاخبين يجلسون في العربة يضحكون ويمزحون ويتدافعون، وكان المقعد الوحيد الشاغر يتوسطهم؛ فذهبت لأجلس فيه لكن رفيقتي في السفر قالت: ''كلا! لن أجلس بجوار هؤلاء المزعجين'' لكنني ذهبت لأنني كنت أشعر بالحرارة وأكاد أفقد وعيي، ولم أعتبرهم سوى مجموعة من الصبيان يتصرفون كعادتهم.

بعد أن جلست تحدث أحد الفتية لزملائه بصوت منخفض قائلًا: ''هلّا هدأتم! ألا ترون المرأة الأجنبية الشقراء التي تجلس بجوارنا، من الأفضل أن نحسن التصرف بدلًا من أن تأخذ انطباعًا سيئًا عنا''؛ بالطبع لم يعلم الفتية أنني أتحدث التركية وأفهم كل ما قالوا، ولم يعلموا مدى امتناني لهم لأنهم يعرفون كيف يحسنون التصرف في الأماكن العامّة، خاصة عند وجود ضيف أجنبي.

يستمتع الأتراك بكسب الأصدقاء أكثر من أي عمل آخر، يفعلون ذلك بدعوة الشخص للانضمام للأنشطة العائلية كأنَّه فرد من العائلة، وقد نزلت ضيفة على عدد من المنازل التركية، وشعرت في كل واحد منها أن الأسرة تبنتني، ربما أنزل عندهم فترة بعد الظهيرة أو يومًا أو أسبوعًا، كانوا يشعروني دائمًا أنني جزء من حياتهم، وكانت أكواب الشاي المتعاقبة تمهد الطريق دائمًا لهذا الشعور بالمؤاخاة.

على سبيل المثال قضيت فترة بعد الظهر ذات مرة أشاهد الصور الفوتوغرافية بصحبة أسرة القائم على دير دراويش إقليم أماسيا، وقضيت يومًا أقشر الجوز في ساحة دار عثمانية عمرها مائتا عام خارج قسطموني

بصحبة مزارع وأسرته، وفي نهاية اليوم ساعدت ابنته في إعادة الأبقار من المرعى إلى الحظيرة في الطابق الأرضي من المنزل، وقضيت يومًا آخر بصحبة جدة تعيش في منزلها خارج مدينة كيرشهير، وقدمت لي الأسرة خبز الشابورة المخبوز حديثًا مع الشاي، وتلقيت دعوة لمنزل حارس متحف في مدينة سافرانبولو، جمعت لي زوجته ثمار التين الطازجة من الحديقة لأتناولها مع الشاي.

وعندما تحين لحظة الرحيل تكون الطقوس متشابهة؛ إذ نتبادل العناوين حتى نظل نتبادل الرسائل والهدايا والأخبار والصور، أو أظل أتذكرهم في أفكاري ودعواتي، وقد بكى البعض عند رحيلي، وبعض النساء سكبن الماء على درج الباب تيمنًا بأن تسير رحلتي بسلاسة كسيلان الماء، وقدم لي البعض هدايا وزهورًا عند ركوبي في الحافلة؛ إن أسرتي الحقيقية لا تغدق عليّ بمثل هذا الحب والاهتمام، هل تفعل أسرتكِ ذلك يا سيدة ماري؟

هل تصدقين أنني كدت أصبح فردًا في أسرة تركية في نيويورك؛ تأمَّلي: ذات مرة وأنا في المطار طلبت مني امرأة تركية لا أعرفها من قبل أن أعتني بابنها البالغ ستة عشر عامًا في رحلته الأولى إلى تركيا.

أما أقرب الأسر التركية إلى نفسي فهي الأسرة التي تبنتني واعتبرتني ابنتها الكبرى "أبلة"؛ إنها أسرة محسن إلياس صوباشي في قيصري، منحتني الأسرة اسمًا تركيًّا وعاملتني باحترام واهتمام ومراعاة أكبر مما تلقيت أنتِ خلال زياراتك الدبلوماسية الرسمية يا سيدة ماري، أصبحت واحدة منهم وصديقة لهم، وتعرفت برب الأسرة عن طريق رسالة كهذه؛ إذ أرسلت إليه لأثني على الكتاب الذي ألفه حول تاريخ قيصري فردّ عليّ، وعلى الفور بدأنا نتبادل الرسائل حتى استقبلني في منزله، وهو منزل هادئ وجميل يقف عاليًا بين التلال خارج قيصري، يستقبل النسيم البارد، ويطل على الفوهة البركانية لجبل أرجييس.

والمنزل تعمه السكينة، ولا تُسمع فيه أصوات مزعجة أو موسيقى صاخبة أو حتى صوت التلفزيون؛ إنه بيت رجل نبيل "أفندي" يمتلك سبعة آلاف كتاب، ويحتفظ بها بعناية شديدة في مكانها المخصص في الطابق الثالث بمكتبه.

يقع المنزل في منتصف حديقة تزخر بأشجار الكرز والتفاح والمشمش والفواكه المزهرة، بينما تفيض أحواض الخضراوات بثمار الطماطم والفلفل.

والمنزل بالكامل مفروش بأثاث مريح وبه مساحات خالية وإضاءة جيدة ومزهريات رائعة، أما نساء المنزل فهن نساء قويات، فزوجته وبناته الثلاث يشرفْن على كل شيء، ويدرن المنزل كأنَّه مصنع زُيِّتتْ آلاته جيدًا فهي تعمل بكفاءة وسلاسة.

وأوّل ما يراه المرء عند مدخل البيت ثلاثون زوجًا من الأحذية مختلفة المقاسات بانتظار أي ضيف ليلبسها ويدخل، وكثيرًا ما يزورهم الجيران لاحتساء الشاي أو القهوة وتبادل الأخبار والقيل والقال.

وقد شيدت الابنة المتزوجة بيتها بجوار بيت الأسرة، واعتاد زوجها أن يحضر للأسرة هدايا خاصة يحضرّها بنفسه، مثل البهارات المطحونة حديثًا وأوعية اليخنة الكبيرة التي تكفي لإطعام الإنكشاريين كلهم.

في هذا البيت تُسرد أبيات الشعر بعد العشاء بحضورهم جميعًا، وفيه يشعر الجيران بالترحاب الشديد فيقطعون الحديقة سيرًا على الأقدام في طريقهم إلى منازلهم.

إنه بيت منظم لن تجد فيه شيئًا مهملًا أو في غير مكانه أو صحنًا غير مغسول، في هذا المنزل يتم تحضير الوجبات الضخمة، وخاصة وجبة

قيصري الشهيرة ''فطائر اللحم'' (الرافيولي التركي)، في مطبخ مجهز جيدًا، وتقوم البنات بتقديمها بكياسة على صينيات رقيقة.

إنه منزل يتم فيه تقديم خمسة عشر طبقًا تحت تعريشة عنب في الحديقة خلال وجبة الإفطار في الصباح مبكِّرًا؛ لذا فهذا المنزل أجمل من أي قلعة من قلاع إنجلترا يا سيدة ماري، أو أي قصر من قصور السلاطين التي زرتها.

إنه منزل ينبض بالحياة تسكنه أسرة متحابة؛ وهذا ما يجعله منزل الأحلام، أصبح لي فيه مكان بفضل طيبة الأسرة التركية التي تبنتني وعاملتني فردًا من أفرادها.

صديقتكم

كاثرين براننج

الإفطار مع سعادت هانم في قيصري

صبيان وكلاب الكنجال التركية، نكسار

مراسم الزفاف في توقات

احتفال عائلي بالختان، أنقرة

عربة خيل مطلية، بازار

قرية اليوروك

أول يوم في الدراسة، إغيردير أيلول/سبتمبر عام ١٩٩١م

الرسالة التاسعة

السر في اسم عظيم الشأن

عزيزتي السيدة ماري،

أنت تحملين لقب ''ليدي'' (سيدة) بصفة رسميّة؛ فأنت ابنة مالك مزرعة إنجليزي وزوجة سيد نبيل، عندما سافرتِ إلى تركيا أخذت معك لقبكِ الذي اكتسبته بفضل ميلادك وتراثك ونشأتك وثروتك وتعليمك وعلاقاتك؛ فتفتحت كل الأبواب في وجهك فورًا بسبب منزلتك العالية، ومعارف زوجك السياسيين، وجواز سفرك الدبلوماسي.

لقد منحك لقب سيدة بكل ما يحمل معه من تراث ميزة خاصة سبقتكِ قبل أن تعبري الحدود وتجذبي الأنظار إليك؛ ناداكِ الكل بلقب ''السيدة'' أينما ذهبتِ كما اعتدت أن يفعل الناس جميعًا في إنجلترا، لكن لعلك لم تنتبهي أن لقب ''سيدة'' لا يمنحك ميزة خاصة في تركيا، لأن كل امرأة هناك ''سيدة''.

وأنا أيضًا ''سيدة'' في تركيا، سيدة تختلف عنك إلى حدٍّ ما، لكنني سيدة بالرغم من ذلك؛ لم أولد لمالك مزرعة، لكنني اكتسبت النبل من كوني امرأة؛ فالأتراك يضعون كل النساء في مرتبة خاصة، منذ أيام إلهة

الأمومة لدى الحيثيين، وعندما يخاطبك أحد يتوجه إليك بلقب ''هانم'' أي سيدتي، فيستخدمون هذا اللقب بعد اسمك الأول إذا كانوا يعرفونه وتصبحين ذات لقب حالًا.

أنا لست مجرد كاثرين في تركيا بل ''كاثرين هانم'' أينما ذهبت، وهذا اللقب يجعلني أنظر لنفسي بطريقة مختلفة، وأشعر بالتميز نوعًا ما، وبأنني محظوظة لأنني وُلدت في هذه الفئة النبيلة فئة النساء.

يتعامل الأتراك مع لقب سيد (بيهْ) وسيدة (هانم) بخصوصية شديدة، ويستخدمونهما في كل مرة يتحدثون إليك؛ فلا يقولون مثلًا: ''السيد ديفيد جونز'' أو ''السيدة سارة هارت'' بل ''ديفيد بيه'' و''سارة هانم''، وليس من الشائع استخدام الاسم ثنائيًّا في تركيا، وبالرغم من كل اتجاهات التفرنج التي شاعت خلال السنوات الأخيرة فإن الأتراك ما زالوا يتعاملون بالأسماء الأولى فقط؛ فاستخدام الاسم ثنائيًّا يبدو غريبًا عليهم، وهم يعتبرون أنه يضفي جوًّا من الرسمية الشديدة ويمنع التواصل بشكل ملائم.

حينما كنتِ في تركيا يا سيدة ماري، كان الوضع كذلك؛ إذ كنت تتعاملين مع معارفك فاطمة وأحمد باسمهما الأوّل، وهي حرية وألفة لم تكوني لتحظي بها في وطنك إنجلترا.

في الواقع لم يستخدم أحد اسم عائلته في تركيا إلا منذ فترة قريبة، بل عاش الأتراك قرونًا وهم يستخدمون الاسم الأول فقط، أو كما هي العادة المتبعة في الدول الإسلامية يستخدمون لقباً مثل: ''علي مبارك'' أو ''محمد الصقر''.

ساد هذا النظام قبل ظهور مصطفى كمال أتاتورك، الذي أخذ على عاتقه مهمة سن قانون إصلاحي من شأنه أن يغير للأبد طريقة التعامل بالأسماء في تركيا.

كان ''قانون التسمية'' عام (١٩٣٤-١٩٣٦م) خطوة متعمدة في طريق الفرْنَجة، علاوة على عدد من الإصلاحات الاجتماعية الموجهة سياسيًّا التي شنها خلال الأعوام الأولى للجمهورية التركية.

تبنى ''قانون التسمية'' تشريعًا يفرض على كل مواطن أن يقوم بتسجيل اسم عائلته، الأمر الذي أربك الأتراك وتركهم في حيرة ابتكار أسماء لأنفسهم، ومع أن الأتراك المتمدنين لم يجدوا مشكلة في هذا القانون الجديد، فإن سكان الريف وجدوا صعوبة في إدراك المغزى من هذا القرار، وفي آخر الأمر تم تبني عدة أنماط لاختيار الاسم وتحديد ما هو مهمّ.

توضح أسماء العائلة القيم المجتمعية السائدة في ذلك الوقت، التي ما زالت إلى حد ما سارية إلى يومنا هذا.

وكان من أوائل الأنماط لاختيار أسماء عائلية تحديد العلاقة العائلية التي تعكس الاحترام البالغ للكبار الذين تحدثت عنهم في رسالتي السابقة، وظهر ذلك جليًّا في استخدام كلمة ''أوغلو'' (ابن)، وإلحاقها بالاسم؛ فهنا في تركيا من العادي أن يكون اسمك الثاني ''ابن صانع البنادق'' مثلًا.

يعرف الأتراك تمامًا من هم ومن أين أتوا، ويفخرون بانتمائهم لتلك المنطقة؛ لهذا يختارون في الأغلب أسماءً تعكس هذا الفخر مثل ''أحمد قونيالو أي أحمد من قونيا''، ويفخرون بأسلافهم العظماء ويختارون أسماء وطنية للقبائل العظيمة، سواءٌ كانت من نسل أبناء آسيا الوسطى أو السلاجقة أو العثمانيين، مثل: ''علي سلجوق أوغلو أي علي ابن السلاجقة''، أو ''محمد كارامان أوغلو أي محمد ابن الكرامان''، أو ألقاب السلاطين العثمانيين المشهورين مثل: ''يلدرم أي الصاعقة''، و''ياووز أي العازم''، أو أسماء بعض السلالات القبلية

الرحالة مثل ''كليتشـليلار أي السـيَّافة''، أو ''كارني بويوك أي أصحاب البطون الكبيرة''.

وعلى مستوى أوضح كثيرًا ما يختار الأتراك أسماء أشياء شائعة محبّبة وملهِمة مثل: ''أسـلان أي الأسـد''، و''بوزكـورت أي الذئب الرمادي''، و''سياه بيتشاك أي السكين الأسود''، و''أوزكايماك أي الزبد الخالص''.

أنـا أفضـل بوجـه خـاص أسـماء العائلـة التـي تـم اختيارهـا لأنهـا جذابـة وشـاعرية أو بسـبب ما تسـتحضره من معـانٍ محببة مثـل: ''كولن أي المبتسـم''، و''يوجيـل أي المُعظـم''، و''يغموردريلـي أي القادم من الوادي المطير''، و''جوكديمير أي السـماء الحديدية''، و''بويوك دوغاني أي البـدر المكتمل''، و''جوموشـكمر أي الحزام الفضـي''، و''أكدومان أي الدخـان الأسـود''، و''كارادومـان أي الدخان الأسـود''، و''دوسـت أوغلـو أي ابـن الصديق الغالي''، و''أسـكي بهليوان أي بطـل المصارعة القديـم''، و''بيشكنسـوت أي اللبـن المحضّـر جيـدًا'' و''تاتليسَـس أي صاحب الصوت الجميل'' و''تشاملي بل أي ممر أشجار الصنوبر''.

من أسـماء العائلة المبتكرة جدًّا تلك التي تُختار لأن الشـخص يتسـم بميزة بدنية ظاهرة مثل: ''تشولاك أوغلو أي ابن الرجل ذي اليد الواحدة''، و''أوكسـوز أوغلـو أي ابن اليتيم''، و''بوسـكوللو أوغلـو أي ابن الرجل ذي الشُرَّابات''.

أمـا أسـماء العائلـة المفضلة لـديّ فهي التي يتـم اختيارهـا لتحديد المهنة؛ فأنا أرى أنَّ في ذلك تتجلى أسمى الصور لفخر الأتراك بمهنهم، ومـن هـذه الأسـماء على سـبيل المثـال: ''قهوجي أي صانـع القهوة''، و''أوكجـو أوغلـو أي ابـن النبّـال''، و''منامنجـي أوغلـو أي ابن صانـع البيـض المخفـوق''، و''لبلبيجـي أوغلـو أي ابـن محمّـص الحمص''،

و"مومجو أوغلو أي ابن صانع الشمعدان"، و"يورجانجي أوغلو أي ابن صانع اللحاف"، و"فندكتجي أوغلو أي ابن زارع الفستق"؛ فهذه الأسماء ستظل تذكّر الأتراك بطريقة حياة سادت في تلك الفترة من تاريخهم.

أما اليوم فاختيار اسم العائلة غالبًا سيكون مثلًا "عليّ ابن مطور برامج الحاسوب"، لكن في عام ١٩٣٤م كانت الأوضاع مختلفة.

ورغم مرور أكثر من خمسة وسبعين عامًا على تبني قانون التسمية لأتاتورك ما زال الاسم الأول هو السائد؛ فبمجرد التعارف بين شخصين يبدأ التعامل بينهما بالاسم الأول، الأمر الذي يخلق شعورًا بالألفة والمودة اللتين تُدْهشانِنَا في أحوال كثيرة نحن أبناءَ الحضارة الأكثر تحفظًا.

تعلمت في نشأتي أن لا أنادي شخصًا باسمه الأول إلا إذا سُمح لي بذلك، أمّا هنا فالعلاقة وثيقة منذ البداية، وتحتاج عملية رفع الكلفة هذه إلى اعتياد من الغربيين.

بالرغم من كل جهود أتاتورك فما زال الأتراك حتى يومنا هذا يفضلون مناداة أحدهم باسمه الأول، ولم يعتادوا على استعمال اسم العائلة في كلّ المواقف.

ولم يبدأ دليل هاتف إسطنبول في سرد الأسماء أبجديًا باعتماد اسم العائلة إلا في عام ١٩٥٠م، أي بعد وقت طويل من تبني قانون التسمية، وعملت سابقًا متطوعة في جمعية خيرية تركية مقرّها في الولايات المتحدة، وأُوكلت إليّ مهمة تحديث قاعدة بيانات أسماء الأعضاء التي اكتشفت لاحقًا أنها مرتبة وفق الاسم الأول.

والأسماء الأولى مبتكرة وممتعة بقدر أسماء العائلة؛ ففي الماضي كانت الأسماء التي استخدمها الأتراك العثمانيون مستوحاة من طبيعة

العرب والمسلمين، أمّا اليوم فهناك اتجاه حديث لاختيار أسماء الأطفال التركية الأصل (أصلان، وأورهان، وأوزير، وتورهان، وكوبيلاي، وتيمور، وإلهان) أكثر من الأسماء المتأثرة بالتقاليد الفارسية والعربية.

وعلاوة على التفضيل المتزايد للأسماء التركية التقليدية ذات الأصول العائدة إلى آسيا الوسطى، بدأت تظهر أسماء أوروبية وأسماء غريبة مثل اسم ''تايفون'' الذي وجدته غريبًا إن لم يكن شاذًا.

تكون الأسماء الأولى مثلها مثل أسماء العائلة ملهِمة وشاعرية وجميلة؛ فالأتراك يميلون لتسمية الصبيان أسماء قوية وحماسية، مثل: ''جنكيز'' و''تيمور'' و''يلماز''، والاسم الذي أفضله هو ''طارق'' أي النجم الساطع في السماوات.

أما الفتيات فيحصلن على أسماء رقيقة وعذبة، وعادة ما تكون أسماء مخلوقات طبيعية مبهجة أو أوصافًا لأفكار شاعرية، مثل: ''سندس'' و''لؤلؤ'' و''أحلام'' و''نبع العسل''، وأكثر اسم أفضله هو ''إريم أي حديقة الجنة''.

إذا أضفت اسمًا أول نابضًا بالحياة إلى اسم عائلة مميز، فغالبًا ستكون النتيجة ملحمة متكاملة، مثل ''يلدرم أكبولوت أي السيد سحابة البرق البيضاء'' أو ''أوزديمير كالباكتشي أوغلو أي السيد الحديد الخام ابن صانع قبعات الفرو'' أو ''إلهان ديميركايا أي السيد صخرة الفولاذ المنغولي'' أو ''كايا أوزتوبراك أي السيد صخرة الأرض الحقيقية'' أو ''دورسون ديليجول أي السيد الزهرة البرية المزهرة دائمًا''، وهذه مجرد أمثلة أعجبتني.

هل يتخيل شخص أن يكون اسمه ''اللورد سحابة البرق البيضاء''؟ كم تمنيت أن يكون اسمي ''الزهرة الحريرية'' أو أي اسم مماثل! لو كان لي أخ اسمه ''طارق'' فربما يصبح مستكشفًا أو رحالة عندما يكبر،

لكن اسمي الأول عادي جدًّا، ذات مرة سألني صديقي التركي الشاعر: ''ما معنى اسمك يا كاثي؟'' وكم شعرت بالحرج عندما لم أجبه؛ لأنني في الحقيقة لا أعرف معنى اسمي ولا سبب اختيار والديّ له!

حينها أدركت مدى إجداب حضارتنا الغربية التي تمنح الأطفال أسماء لا معنى لها، وتحرمهم من الأسماء الملهِمة وفرصة النمو وتحقيق مغزى تلك الأسماء؛ لهذا قدّرت الأتراك المبدعين الذين ينسبون لأبنائهم سمات، مثل: الأمل، والقوة، والشِعر.

نظرًا لأن صديقي رجل تركي مسؤول؛ قرر منحي اسمًا تركيًّا، وتوصل إلى اسم على وزن اسمي الحقيقي وفي الوقت نفسه يحمل معنى يلائمني؛ وهو ''قدرية''، ويعني الشخصية الموقرة المقدرة الجليلة.

واتضح لي أنه اسم قديم، لكنني كلما قدّمت نفسي باسم ''قدرية'' جاء رد فعل الأتراك مخالفًا تمامًا لرد فعلهم عندما أذكر اسمي الحقيقي.

بالطبع يسهل عليهم حفظ هذا الاسم ونطقه مقارنة باسمي الإنجليزي، لكنه فوق كل شيء يميزني بأنّي امرأة تستحق الاحترام والتقدير؛ ولهذا سأظل ممتنة للأبد لصديقي الذي منحني هذا الاسم، جعلني أشعر بالترحاب وبأنني جزء من الثقافة التركية، وقد أصبح اسمي الآن ''قدرية'' بالنسبة لأي تركي أتعرف إليه، وبالنسبة لجميع أصدقائي الأتراك.

وبخلاف هذا الاسم حصلت على عدة ألقاب أيضًا كلها تستخدم مع لقب سيدة؛ فقد أسموني ''السيدة السابحة'' و''سيدة الخان'' و''سيدة الزهرة الصفراء'' و''سيدة العيون الباسمة'' و''سيدة العيون الزرقاء''؛ بالطبع لا يمكنني نسيان هذه اللفتات المبدِعة الصادقة لأصدقاء منحوني اسمًا بسيطًا.

بالفعل لكلّ مسمًّى من اسمه نصيب كما تقول المقولة القديمة، إذًا عمَّ تخبرنا أسماء الأتراك؟ تخبرنا أنه شعب معتز بتراثه وأهله ومهنه؛ شعب يحب الطبيعة والجمال بصدق؛ شعب يحب أن يحلم ويتمنى أن يخلق هوية قوية لأبنائه، تخبرنا عن الجانب الإبداعي والترفيهي في شخصيته؛ فهذه الأسماء التركية تجعلنا نكتشف شعبًا محترمًا وودودًا، حقًّا إنَّه يمكن لشيء بسيط كالأسماء أن يخبرنا بالكثير عن هذا الشعب.

هل فكّرْتِ يومًا يا سيدة ماري في اسم العائلة الذي ستختارينه إذا أتيحت لك الفرصة؟ حقًا سيكون هذا من أصعب الاختيارات، على الأرجح سأختار لنفسي اسم ''السيدة قيّمة الكتب''، وأنت سيكون اسمكِ ''السيدة صاحبة القلم المتدفق''، لكنني بالرغم من كل شيء أتفق مع الأتراك؛ فمن ذا الذي يحتاج إلى اسم عائلة! وأخيرًا أظن أن اسم ''السيدة قدرية الزهرة الصفراء'' يلائمني تمامًا.

صديقتكم

قدرية براننج

الرسالة العاشرة

صباحات سعيدة!

إلى معلماتي التركيات في الماضي والحاضر

عزيزتي السيدة ماري،

من بين التعليقات الأكثر تأثيرًا في نفسي وكنت قرأتها في ''رسائل السفارة'' تلك التي كتبتها إلى أختك من فيينا:

> ''تتجسد أقصى سعادة في الحياة في محادثة منتقاة مع عدة أشخاص نكنّ لهم التقدير''

إنها كذلك بالفعل، ولعل هذا هو سبب اهتمامي الشديد باللغات الأخرى؛ فهي تسمح للمرء بالقيام بتلك المحادثات المنتقاة مع ''أشخاص يقدرهم'' من مختلف بقاع الأرض، وقد كان هذا حافزي الأساس لتعلّم اللغة التركية؛ إذ أدركت أنني إن أردت حقًّا التعرف على هذا البلد وأهله فلا بد أن أتحدث لغتهم، وما أشد غفلتي حينها عن التحديات التي سأواجهها!

أنتِ أيضًا أيقنت أن تعلم اللغة التركية سيمنحك تميزًا في بيئتك، كما سيساعدك على الاطلاع على المؤلفات التركية، وهو أمر أثار اهتمامك أكثر من أي شيء آخر، تلخص هذه المعاني عبارة لأتاتورك محفورة فوق مدخل مبنى علم الإنسانيات في جامعة أنقرة: "العلم هو المرشد الحقيقي في الحياة"؛ ونظرًا لإيمانك بهذه العبارة كانت دافعًا لكِ لبدء برنامج تدريبي صارم لتعلّم اللغة التركية قبل أن تَصِلي إلى القسطنطينية.

يبدو أنكِ لم تواجهي صعوبة كبيرة في تعلم اللغة التركية، إنها الحقيقة، أنت تعلمتِ اللغة اللاتينية قبل أن تستكملي الثامنة من العمر، ولا بد أن أقِرّ أنني أشعر بالغيرة قليلًا من قدرتك على التعلم بسرعة! ربما يرجع الفضل إلى معلمكِ الممتاز؛ فبعد مغادرة فيينا مكثتِ في بلجراد ثلاثة أسابيع فتعلمت اللغة التركية على يد أحمد أفندي الذي قلت عنه: "شرح لي أبياتًا كثيرة من الشعر العربي، ولاحظت أن أوزانها تختلف عن أوزان أشعارنا، فهو شعر مقفى، له جرس موسيقي ملحوظ، أما عبارات الحب فهي متقدة العاطفة ومفعمة بالحياة..."

لقد فتح لكِ أبواب عالم الأدب العربي، والفارسي، والعثماني، ولا شك أنكِ كنت طالبة استثنائية؛ إذ أرسلت إلى صديقك أليكساندر بوب بعد أسابيع قليلة بعض ملحوظاتك حول اللغة التركية، قلت في رسالتك: "إن اللغة المستخدمة في البلاط تختلف كليًّا عن لغة عوامّ الأتراك"، وأوضحت له أسلوب كتابة الشعر بإرسال قصيدة لأحد النبلاء، وتباهيت أمامه بسعة علمك الأدبي حينما قلت: "كما ترى فقد قطعت شوطًا كبيرًا في تعلم لغة الشرق".

لا بد أن أعترف أنني مذهولة من سرعة تعلمكِ كل ذلك في وقت قصير، واعجبًا فأنت التقيت فاطمة "الجميلة كالملاك" مرّة أخرى

في القسطنطينية بعد مرور عام كنتِ قادرة على التحدّث معها باللغة التركية، وهو أمر مثير للإعجاب بالفعل! وأرسلتِ رسالة إلى صديق بعد مرور عام على وصولك، وتحديدًا في أبريل/نيسان عام ١٧١٨م تقولين فيها: ''أصبحت أتحدث التركية على نحو جيد، وأسعدني الحظ بتكوين صداقات مع نساء تركيات أعجبن بي، ويمكنني أن أفتخر بأنني أول امرأة أجنبية تحظى بهذا الشرف''.

عقب وصولك إلى القسطنطينية تابعت برنامج تعلمك الذاتي، ووضعت نظامًا يوميًّا صارمًا لتعلم اللغة، وقد وصفت لصديقك بوب جدول أنشطتك التدريبية الأسبوعي الذي اعتبرتِه أهم من مشاغلك في إنجلترا فقلتِ: ''أسعى جاهدة لإقناع نفسي أنني أعيش حياة متنوعة ومنسجمة أكثر منك، وأن مراقبة طائر الحجل يوم الاثنين، وقراءة الأدب الإنجليزي يوم الثلاثاء، وتعلم اللغة التركية يوم الأربعاء -وأنا أتقنها جيدًا الآن- ودراسة المؤلفين الكلاسيكيين يوم الخميس، والكتابة يوم الجمعة، والانهماك في الخياطة يوم السبت، وتبادل الزيارات والاستماع إلى الموسيقى يوم الأحد، ذلك كلُّه أسلوب مناسب لقضاء الأسبوع أفضل من الجدول الروتيني الدائم في لندن''، نعم تعلُّم اللغة قد يصبح حقًّا مغامرة مثيرة وجذابة.

غيرأنك لست الشخص الوحيد الموهوب في تعلم اللغات؛ فالأتراك ماهرون في ذلك أيضًا، وربما يرجع ذلك إلى مهارتهم الفطرية، أو إلى وجودهم الدائم في مفترقِ طرقٍ لغويٍّ، علّقتِ في رسالة لك بتاريخ ١٦ آذار/مارس عام ١٧١٨م على سعة معرفتهم باللغات المختلفة:

''...أنـا أعيش في مـكان يعتبر أفضل تمثيل لبـرج بابل؛ ففي منطقـة بيـرا يتحدثـون التركيـة، واليونانيـة، والعبريـة، والأرمنية، والعربية، والفارسية، والروسية، والسلافية، والوالاكية، والألمانية، والهولنديـة، والفرنسـية، والإنجليزيـة، والإيطاليـة، والمجريـة؛ والأكثـر مـن ذلـك أن هنـاك عشـرًا مـن هـذه اللغات مسـتخدمة في بيتي: فسائسو الخيل عرب، والخدام فرنسيون وإنجليز وألمان، ومربيتـي أرمنيـة، وخادماتـي روسـيات، وهنـاك سـت خادمـات أخريـات يونانيات، ومدير المنزل إيطالي، والجنود الإنكشـاريّون أتراك، فأصبحت أسـتمـع باسـتمرار إلى هذا المزيج من اللغات، وهو ما يترك انطباعًا اسـتثنائيًّا على الأشخاص الذين يولدون هنا، فهـم يتعلمـون كل هـذه اللغـات في الوقـت نفسـه دون أن يتقنوا أيًّـا منهـا بالقدر الكافي الذي يؤهلهم لاسـتخدامها فـي الكتابة أو القـراءة، وثَمَّـة عدد محـدود من الرجال والنسـاء والأطفال الذين يعرفون كلمات بخمس أو سـت لغات... قد يصعب تصديق هذا الأمر ، وأنا أرى أنه أحد الأمور اللافتة للنظر في هذا البلد، كما أنه ينتقص كثيرًا من مزايا سـيداتنا اللاتي يدعين العبقرية الفذة بفضل معرفتهن السطحية باللغة الفرنسية والإيطالية''.

هنـاك عدة لغات ''مختلفة'' يتحدثهـا الأتراك حتى يومنا هذا: العربية فـي محافظـة هاتـاي، والكردية في شـرق تركيا، واللغـات الأوروبية التي تستخدمها العائلات الشامية القديمة في بيرا ''الفرنسية واليونانية والإيطالية غالبًا''، وقد اكتشـفت لغة أخرى جديدة في إسـطنبول: هي لغة الأسواق، كم تدهشني مهارة أصحاب المتاجر والباعة -الذين يتعاملون مـع السياح- في الانتقال بسلاسـة ويسر بين الروسية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية، واليابانية أحيانًا بدون أدنى مجهود، وهم لا يتحدثون هذه اللغات فحسب، بل يتمتعون بمهارة تحويل العملات المتعددة ذهنيا؛ فيمكنهم حساب ثمن أي سلعة بسرعة فائقة تنافس سرعة الآلة الحاسبة.

ليتني أستطيع التفاخر بمهاراتي في اللغة التركية كما تفاخرين بمهاراتكِ أمام صديقك بوب، ومع أنني قد حظيت بعدة معلمين ممتازين للغة التركية، فلم أتمكن من إتقانها تمامًا، يمكنني قول أيّ شيء أريد، لكنني عندما أتحدث التركية أرى في أعين المستمعين صراعًا لفهم ما أحاول قوله، أو أجد أعينهم تبرق بدهشة لدى سماع عباراتي المفككة، قضيت أعوامًا عدة في تدريس اللغات الأجنبية وتشجيع الآخرين على تعلّمها، وأدرت واحدة من أكبر مدارس اللغات في العالم؛ وهذا يعني أنني ملمّة بالتحديات ومشاعر الإحباط والسعادة المصاحبة لتعلّم لغة جديدة، بل إنني أشهد أن اللغة التركية قد أمدتني بنصيب وافر من التحديات ليست اللغوية فحسب بل الثقافية أيضًا.

أدركت مبكرًا أن القاعدة الأولى للتواصل في العائلات التركية هي نفس القاعدة التي تحكم كل علاقات التواصل، ألا وهي الاحترام؛ فالأتراك يهتمون جدًا بالتواصل مع الآخر بأسلوب يعكس قدرًا كافيًا من الاحترام، وهذا الاحترام يعتمد على عدة عوامل منها السن، والثروة، والمعارف، والمنصب الذي يحتله الشخص في مهنته أو مجتمعه، والويل لمن لا ينجح في إظهار القدر الملائم من الاحترام للطرف الآخر، إن التواصل عند الأتراك يعني في المقام الأول إبداء الاحترام بترك الطرف الآخر يتحدث مطولًا دون مقاطعته، والإنصات باهتمام لما يقول، ويُحظر معارضة الطرف الآخر؛ لأن هذا قد يعتبر دليلًا على مجاهرة العداء، والأتراك حساسون جدًّا تجاه هذه النقطة، تعلمت هذا الدرس بالطريقة الصعبة، لأنني اعتدت في ثقافتي -وخاصّةً في مدينة نيويورك حيث إيقاع الحياة السريع- على إجراء عدة محادثات في آن واحد، أما في فرنسا فالاعتراض أثناء المحادثات أمر متوقع؛ لأن المرء إذا لم يعترض فهذا يعني أنه غير منتبه لكلام الآخر، لكن الأمر مختلف في تركيا.

وبعيدًا عن مجرد تبادل الحديث، فمن الضروري فهم الشكليات الصغيرة الواجب مراعاتها في كل الحوارات الناجحة، فعلى سبيل المثال ليس من المستحب الاقتراب من شخص وطرح سؤال مباشرة دون الاستهلال بكلمة: ''مرحبًا'' أو ''عذرًا'' أو ''أنا آسف على الإزعاج''، إلى غير ذلك، بل إن الأتراك غالبًا ما يبدؤون حديثهم بالكلمة البسيطة الرقيقة *Acaba* التي تعني '' أتساءل...'' أو '' ياترى هل يمكن هذا...؟!'' وسرعان ما يدرك المرء أنه إذا لم يراع هذه القواعد والشكليات البسيطة فإن علاقته بالآخرين ستحيد عن الصواب، وسيُنظر إليه أنَّه شخص فظ، فمثلًا إذا اقترب منك شخص وعرض المساعدة في توجيهك إلى أي مكان تريد، فلا بد أن تقبل عرضه الصادق وأن لا ترفضه وإن كنت تعلم جيدًا المكان الذي ستذهب إليه؛ لأن رفض مساعدته تصرف غاية في الغلظة، ويجب أيضًا دائمًا قبول كوب الشاي المقدم إليك، ولعل أكثر الحالات لسوء الفهم اللغوي التي تحدث للأجانب في تركيا تكون بسبب كلمة ''لا''؛ فعندما يرغب شخص تركي في الرفض لا يقول ذلك، بل يعبر عنه برفع حاجبيه بجدية وصرامة، وإصدار صوت طقطقة من فمه، مع إمالة الرأس إلى الوراء قليلًا، وأحيانًا يلاحظ المرء كلّ هذه الإيماءات أو واحدة منها فقط، ومع أنها قد تكون غير واضحة غالبًا لكنها مستخدمة، ونادرًا ما تُنطق كلمة ''لا''، بل تُستخدم الإشارات للتعبير عنها؛ لهذا لا بد من الانتباه للإشارات، ومحلّ سوء الفهم أن الأجانب الذين لا يتلقون إجابة على سؤالهم كثيرًا ما يظنون أنه قد تم تجاهلهم، في حين أنهم قد تلقوا إجابة بالفعل عبر هذه الإشارات الصامتة.

لعل قواعد التواصل العالمية تحمل أهمية قصوى في تركيا بفضل الوعي الشديد لإبداء الاحترام، ولتفادي حالات سوء الفهم ينبغي ملاحظة الأمور الخفية لا الأمور الجلية فحسب ، فكل أنواع التواصل

تحمل ثلاث رسائل مختلفة: الرسالة التي تريد إرسالها، والرسالة التي تخرج من فيك، والرسالة التي تصل بالفعل إلى الطرف الآخر ويؤولها وفق مستواه العقلي وتفكيره، فكل شخص يجلس معك في الغرفة سواءٌ كان في القرية أو في المتجر أو في مركز حضاري أو في اجتماع أعمال في المدينة يتصرف وفقًا لتأثير الحوار عليه، أو بحسب علاقته بالآخرين، والأجانب الذين يراعون هذه النقطة وينتبهون لإبداء الاحترام الواجب يسهل على المجتمع تقبلهم.

من المفيد أيضًا محاولة البحث عن الدعابة في مواقف التواصل الغريبة التي تحدث يوميًّا؛ فلا ينبغي اعتبار أي لقاء أو موقف من المسلّمات، مع التسليم بأن المرء لن يفهم كلّ شيء، حتى عندما يتم تفسير المواقف ربما يعجز المرء عن فهمها لأنه بكل بساطة ليس تركيًّا؛ فمواقف كثيرة ربّما تكون شائعة أو عادية لكن نظرًا لأنني أعجز عن فهم الدافع وراءها تبدو محيرة في نظري، قيل لي ذات مرة إنني أشبه الفرس، وهو تشبيه تركني منزعجة عدّة أيام؛ لأنه يعتبر إهانة صريحة في ثقافتي، ولم أعرف إلا بعد مرور وقت طويل كيف يقدّر الأتراك الخيل تقديرًا شديدًا؛ حينها فقط أدركت أنني تلقيت واحدة من أسمى المجاملات في الواقع.

في السنوات الأولى التي قضيتها في تركيا كان من النادر جدًّا أن أجد أجنبيًّا يتحدث اللغة التركية، خاصة المناطق الريفية التي أكثرت السفر إليها، وكان من الشائع أن تتسبب عبارة بسيطة أقولها بالتركية مثل ''مرحبًا، صباح الخير، هلّا تدلّني على طريق المسجد الكبير!'' في تدافع الأتراك المفاجئ حولي كسرب طير في حقل حبوب، أظنّك واجهت مواقف مشابهة يا سيدة ماري؛ ففي رسالتك لصديقتك السيدة بريستول

في الأول من أبريل/نيسان عام ١٧١٧م حكيتِ كيف جذبت أنت وزوجة السفير الفرنسي أنظار الجميع في نزهتكما:

> ''خرجت معها منذ عدة أيام في جولة حول المدينة في عربة تجرها الخيول وقد رُفع غطاؤها، وبصحبتنا موكب مشترك من الخدم، يسبقه الحراس الذين اجتذبوا الناس لرؤية مشهد لم يروه من قبل، ولن يروه بعد؛ إنهما سفيرتان شابتان مسيحيتان لم يسبق لهما المجيء معًا إلى البلاد، ولا أظنّ أن هذا سيتكرر، يمكن لسيادتك أن تتخيلي حشد المتفرجين الضخم الذي وقف يراقبنا في صمت مطبق، لو أن أحد هؤلاء العامة فكر أن يتجاوز حدوده فإن الجنود الإنكشاريين لم يكونوا ليترددوا عند أول حركة أو موقف غريب في الانهيال عليه بسيوفهم المعقوفة...''

قد يكون جذب كل هذه الحشود مخيفًا في بعض الأحيان، وقد شعرت في عدة مواقف بالخوف حتى أدركت أن هؤلاء الأشخاص مجتمعون حولي بدافع الفضول المحض، وحينما فهمت أخيرًا أنهم ليسوا مجتمعين حولي بسببي، ولكن بسبب أخطائي التركية ولهجتي الغريبة شعرت بالراحة، في رأيي إنها المرة الأولى التي يستمع فيها معظم هؤلاء الأتراك إلى لغتهم بلسان أجنبي؛ فحداهم الفضول إلى معرفة كيف سأركّب العبارات وأختار الكلمات، وفوق كل شيء أرادوا الاستماع إلى لهجتي، لقد اكتشفت أن نطق التركية بلهجة مختلفة قد يساعد كثيرًا في تلقي خدمة رائعة في المطاعم؛ ففور أن أجلس يهرع إليّ خمسة نادلين لتلقي طلباتي، وتعديل المنديل، وصب الماء لي، وكل ذلك بهدف الاستماع إلى لهجتي الغريبة.

صحيح أنني حينما سافرت إلى تركيا في البداية لم يكن هناك سوى مدارس قليلة لتعليم اللغة التركية، وعدد محدود من كتب القواعد، وانعدام تام للكتب الدراسية الخاصة بتعليم اللغة التركية للأجانب، لكن صارت اللغة التركية الآن تُدرّس في الجامعات والمدارس في مختلف أنحاء العالم، والأتراك يؤلفون الكتب الدراسية بغزارة حول تعلم اللغات الثانية، وهناك مسابقات لغوية لصغار الطلاب الذين يتعلمون التركية، وتبنى الأتراك الإطار الأوروبي الموحد لإرشادات تعليم اللغات في مدارسهم قبل أن أتبناها بوقت طويل.

ومع ذلك ظلّ تعلّم اللغة التركية صعبًا ومحيّرًا في نظري، وكان أصعب شيء إجراء مكالمة هاتفية؛ لأنني أرتبك وأقترف أخطاء شنيعة تنتهي بفترات صمت طويلة بيني وبين الطرف الآخر، ولأن إجراء مكالمة أمر مقلق؛ فإنني ألجأ غالبًا لكتابة ما أود قوله في ورقة، والقراءة منها أثناء المكالمة، ولاحظت أنني إذا أردت التأكد من معلومة فإن سؤال امرأة يكون أفضل؛ لأن لغة النساء أسهل في الفهم ولعل النساء في مختلف أنحاء العالم تميل للحديث بنفس اللكنة! وخلال المحادثات الطويلة غالبًا ما أصاب بالإحباط والإرهاق والتعب من المجهود العقلي المضني الذي أبذله لاختيار كلمات مفهومة وتركيبها في عبارات ذات معنى، أو جرَّاء من الانتباه المستمر ومحاولة فهم كل شيء، وهو ما ينهكني، وفجأة يتوقف عقلي عن العمل، ويكون الحل الوحيد أن أرحل متمنيةً ألا يعتبرني الآخرون غير مهذّبة أو ينقصني احترام الآخرين.

بقدر صعوبة تعلم اللغة التركية تبدو سهلة جدًّا بفضل المساعدة التي يقدمها لك الأتراك عندما تحاول التعبير عن نفسك؛ فهم يشجعونك على البحث عن الكلمات والعبارات للتعبير عن أفكارك، وعندما تتحدث

بلغة تركية ركيكة لا يقاطعونك مطلقًا، بل يكملون الحوار معك، وهم في ذلك مختلفون تمامًا عن الفرنسيين المتأهبين دائمًا لتصحيح أي خطأ طفيف يرون أنه قد يسيء إلى لغتهم، أما الأتراك فهم يشجعونك كفرس منطلق في مضمار السباق، ويحمسونك دائمًا بتهنئتك على الوصول إلى خط النهاية عندما تتمكن من إنهاء عبارة بنجاح، بالإضافة إلى كل معلميَّ فإن البلد كله كان مكرَّسًا لأتعلم اللغة التركية.

علاوة على ذلك فإن حرص الأتراك على إبداء الاحترام خلال التواصل أمر يرحب به الأجانب ويقدرونه، فالأتراك ينتظرون حتى تنتهي تمامًا مما تقول وإن كانوا لا يفهمون كلمة مما قلت، وكثيرًا ما يومئون برؤوسهم، لا يصحح الأتراك مطلقًا أخطاءك اللغوية -فذلك يوحي بالتناقض والاعتراض- أو ينظرون إليك باستهجان وعدم فهم وهم مقطبو الجبين، وتجدهم يكررون اسمك باستمرار في سياق الحوار لتظل منتبهًا ومركزًا، وعندما يشعرون أنك لا تفهم ما قيل فإنهم يتوقفون ويعيدون صياغة الفكرة بكلمات وعبارات يوقنون أنك ستفهمها، فصبر الأتراك لا حدود له، ومن المستحيل أن ترتكب خطأ لغويًا فادحًا؛ لأنّ الأتراك لن يتركوك تصل إلى هذه المرحلة، فبمجرد أن يشعروا أن الأمور ليست على ما يرام يبدؤون في مساعدتك بهدوء؛ إذ يصعب عليهم فهم ما تحاول قوله كما يصعب عليك فهم ما يقولونه، لكنهم لا يبدون ذلك قط، إنهم سادة في التواصل لأنهم يراعونك على طول الخط، وهذا يعني أن طبيعة الأتراك الحقيقية تظهر في علاقات التواصل مع الأجانب؛ إذ تتجلى سمات الاحترام والطيبة والكرم والصبر وروح الدعابة في أوضح صورها.

إذا كانت اللغة التركية صعبة إلى هذا الحد فلماذا أثابر على تعلمها؟ فضلًا عن ترقّب تلك "المحادثات المنتقاة" وقراءة أشعار نديم فهناك

أشياء كثيرة تجذبني في اللغة التركية، فمن الناحية اللغوية يعتبر تركيب مفرداتها الإلصاقي مذهلًا؛ إذ يضيف المرء للكلمة اللواحق واحدة تلو الأخرى مثل مقطورات، وكما هو الحال في اللغة الألمانية فإنني أستمتع بالعثور على الفعل في اللغة التركية في آخر الجملة كالمقطورة الأخيرة للقطار، فيفسر ويوضح كل الأسماء والصفات السابقة له، كم تحيرني إمكانية بناء عبارة كاملة من كلمة واحدة تقف في منتصف الجملة! وبالمثل تحيرني الجمل التي تبدو -على عكس اللغة الإنجليزية- مركبة من النهاية إلى البداية أو بالمقلوب، ويبهرني وجود زمن "الماضي غير المشهود" في اللغة التركية الذي يجعلك تروي أحداثًا لم ترها أو تسمع عنها مباشرة، فهو يسمح لك أن تكون مجرد ناقل لأخبار يُحتمل ألا تكون صحيحة، ويذهلني وجود زمن يمكنه أن يكون حاضرا أو ماضيًا أو مستقبلًا بحسب الموقف، فعلى سبيل المثال هذه العبارة "مكتب البريد الذي أمامه المرتدية السترة الحمراء -المستعدة لشد شعرها- الأجنبية تقف" ليست كلامًا مبهما، بل إنها عبارة تركية مثالية التركيب؛ لهذا تجعلني اللغة التركية منتبهة دائمًا لأنني لا أعلم موقعي في الجملة، في المرات النادرة التي يتمكن فيها عقلي من فهم الرموز اللغوية المستحيلة لقطار الكلمات المتراص في الجملة أشعر أنني فككت شفرة سرية مُحكَمة.

أحبّ أيضًا صوت الحديث باللغة التركية؛ فعندما يتحدث بها الرجال يصدر صوت أشبه بتدفق المياه في غدير مشجر، وعندما تتحدث بها النساء (خاصة نساء إسطنبول) يصدر صوت أشبه بحديث طائر مغرد، ويسعدني استعارة الأتراك كلمات كثيرة من اللغة الفرنسية في مجالات الإدارة والأزياء والفنون؛ فقد سهل ذلك الأمور عليّ كثيرًا لأنني غالبًا ما أجد كلمة مألوفة، وبالإضافة إلى الاستعارة المبدعة من لغات أخرى تسعدني قدرة الأتراك الفنية على ابتكار كلمات جديدة

تواكب التقدم الحضاري، مثل "حاسب المعرفة" إشارةً إلى الكمبيوتر و"هاتف الجيب" إشارةً إلى الهاتف المحمول، وتعجبني أيضًا قوة وصرامة بعض صيغ الأمر التي تستطيع بقوتها وقف صاروخ في الفضاء: "*Yapma! Ayıp! Dur!*" (لا تفعل ذلك! عار عليك! توقف!)، ومن المتع الحقيقية في اللغة التركية آلاف الأمثال التي تزخرف الحديث؛ فالأتراك يحبون استخدام العبارات التراثية التقليدية، ولديهم باقة متنوعة منها، ومن هذه الأمثال الشعبية: "الحمار لن يقدّر عصير الفاكهة"، و"المصارع المهزوم لا تنهكه المصارعة"، و"مشتري البقول العفنة رجل أعمى"، و"من يدخل حمامًا تركيًّا فسيعرق"، و"ثمة أسد في كل قلب"، و"الكفن لا جيوب له"، و"الديك الذي يصيح قبل الموعد سيُقطع رأسه"، بل إن هناك معاجم كاملة مخصصة لتلك الأمثال.

أسعد بسماع الكلمات الرقيقة التي يتبادلها الأتراك في الحياة اليومية، مثلًا "سلمت يداك" لمن يطهو أو يفعل شيئًا ممتازًا، و"شفاك الله" للمريض، و"الله يعينك" عند المرور بعمّال يعملون بأيديهم، والعبارة المؤثرة "عسى أن تكون أسوأ أيامنا كهذا اليوم" التي تُقال في المناسبات السعيدة، وتتمتع اللغة التركية أيضًا ببعض الخصائص الرائعة، وأبرزها كلمة *Yok* التي تحمل معاني عدة، بدءًا من "لا" وصولًا إلى "حتمًا أنت تمزح" و"إياك!" أما العادة الخاصة المفضلة لديّ فهي تمني صباحات وأمسيات سعيدة للآخرين، وعندما استفهمت عن معنى ذلك كان الرد نظرات مستغربة؛ إذ يبدو أنهم بسخائهم غير المتناهي لا يمكنهم تمني صباح سعيد واحد فقط للآخرين، بل لا بد من تمني حياة مليئة بالصباحات والأمسيات السعيدة.

قضيت وقتًا طويلًا في ترجمة القصص والأشعار التركية إلى الإنجليزية، وواجهت تحديات تفوق كل التحديات التي تواجه المترجمين عادة، أنت أيضًا يا سيدة ماري شاركت أحد أصدقائك رسالة حب مسلية قمت بترجمتها، وفي أحيان كثيرة يكون من الصعب جدًّا نقل هذا التدفق في المشاعر إلى لغة إنجليزية سلسة، ربما لأن تركيب العبارات التركية دائري وليس خطي كعباراتنا الإنجليزية، سيدة ماري، لقد اعترفت بعد ترجمة القصيدة بما يلي: ''لا يمكنني أن أحدّد إجمالًا مقدار نجاحي في الترجمة، وأظن أن لغتنا الإنجليزية غير كافية للتعبير عن هذه المشاعر القوية التي نادرًا ما نختبرها، ونريد أيضًا مثل ما في اللغة التركيّة من هذه الكلمات المركبة المؤثرة الشائعة''، الترجمة تشبه الجهة الأخرى من السجادة؛ إذ تستطيع رؤية الألوان، وتحديد دقة عدد العقد، وملاحظة أي خطأ ارتكبه النسّاج، وتستطيع أن تحدد فورًا مدى مهارة النسّاج، فينبغي أن تنظر إلى الترجمة من أوجه متعدّدة لتتمكن من الحكم على جودة العمل والمجهود المبذول فيه وتقدّر جماله الكلي.

عقب أشهرٍ من دراسة اللغة التركية وصلتِ إلى حائط سد يا سيدة ماري، مع أنك موهوبة وتتقنين عدة لغات، فقد خشيتِ أن تفقدي لغتك الإنجليزية في سعيك لملأ رأسك بلغات أخرى كثيرة: ''يستحيل على إنسان واحد أن يتقن عشر لغات مختلفة إتقانًا تامًّا كما يستحيل عليه أن يسيطر على عشر ممالك مختلفة، أو يحارب عشرة رجال في آن واحد''، لكن هذا الصراع في تعلم اللغة التركية مجز؛ لأنه ساعد كلتينا أن تعيش في تركيا بوصفها أجنبية وليست سائحة، وساعدنا على كسب صداقات ومشاركة الحياة مع الآخرين، وكما قلتِ عن صديقك أحمد: ''لا يمكنك تصور مدى سعادته النابعة من قدرته على الحديث معي''، وكذا سعادتنا بالحديث معهم.

في إحدى رسائلك الأخيرة كتبت إلى صديقة تخبرينها عن مدى أسفك لمغادرة تركيا بعد أن تعلمت اللغة، لكنك حتمًا تعرفين يا سيدة ماري أن المرء قد يرحل عن البلد لكنه لن يفقد اللغة التي تعلّمها مطلقًا، فأول جمهورية هي جمهورية اللغة.

مع تمنياتي بأمسيات سعيدة
قدرية برانـنج

مقولات للبطل الشعبي نصر الدين خوجا (جحا) ويُفترض أن يكون محل ميلاده في قرية هورتو

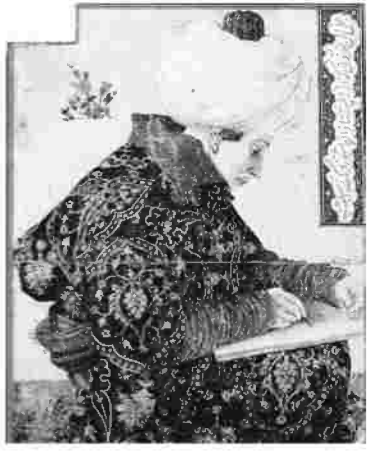

كاتب عثماني بريشة بِيْلِيني

ذكرى في مدينة كرامان؛ هذه اللوحة تشير إلى أنّ إمارة الكرامانيين هي أول إمارة تعترف بأنّ اللغة التركية هي اللغة الرسميّة

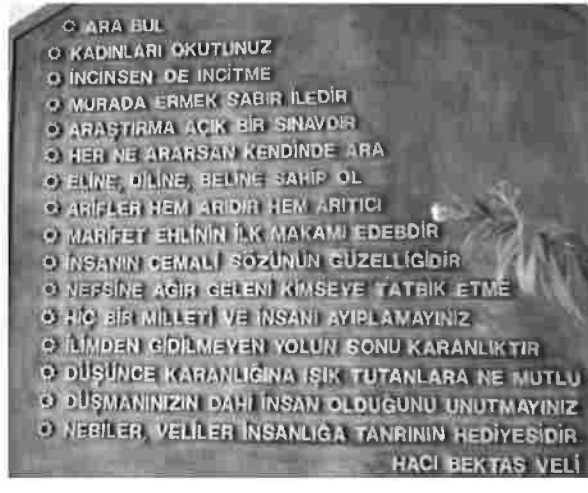

مقولات حاجي بكتاش ولي

الرسالة الحادية عشرة

أشعر بالراحة هنا

عزيزتي السيدة ماري،

ثمة سؤال يوجه إليّ باستمرار، سواءٌ من الأتراك أو غيرهم، وهو عن سبب ترددي على تركيا عامًا تلو الآخر، وعادة ما يأتي هذا السؤال عقب سؤالي عن سبب حضوري إلى تركيا في المقام الأول، إن السفر في حد ذاته يعد تحديًا ومتعة، وخاصة إلى تركيا، وكما ذكرتِ في إحدى رسائلك المبكرة يا سيدة ماري: السفر إلى تركيا أشبه بعرض أوبرا، "هذا البلد بلا شك أحد أعظم بلدان العالم؛ كل ما رأيته حتى الآن جديد عليّ، كأنني أرى مشهدًا جديدًا في الأوبرا كل يوم"، عقب رحلتي الأولى في عام ١٩٧٨م بدأت أدرك حقًّا مزايا السفر، واكتشفت أنني أستمتع بملاحظة ما بين الناس من اختلاف، لكنني أحتاج إلى بذل مجهود كبير للتعرف عليهم وكسر حاجز القوالب والأنماط الشائعة، وبالطبع تطلب هذا الجهد زيارة البلد عدة مرات.

نحن متشابهتان جدًّا يا سيدة ماري، وعلى الأرجح كنا سنشكّل رفقة سفر ممتازة؛ فأنا أيضًا بدأت أهتم بالحياة الاجتماعية والإسلام، وعلّمت

نفسي اللغة التركية والشعر بكل حماس، وزرت المساجد والآثار القديمة، وسافرت وحدي بدون زوجي، أنا مثلك مهتمة بحياة النساء وقضاياهن من تعليم وصحة وتكافؤ فرص وزواج، وأشكك مثلك في الديانة التي أعتنقها بمقارنتها بديانة أخرى، تمكنت كلتانا من الانفتاح على قضايا عدة لأننا امرأتان أجنبيتان تتمتعان بمكانة خاصة.

إن سفر المرء -خاصة منفردًا- يتطلب دافعًا قويًّا بالقدر الكافي ليتمكن من الصمود أمام عقبات مثل الحرارة، والتعب، والشهية، والقلق، والخوف، والقصور الذاتي والميل الجبليّ للكسل، عندما يكون المرء في مكان غريب فإن المواقف البسيطة كسوء الفهم المتبادل والحزن واللقاءات القصيرة تمنحه فهمًا عميقًا لنفسه وللبلد الذي جاء منه.

هذه هي الأسباب البسيطة الممتعة التي تجعلني أحب السفر بوجه عام؛ فهو يتيح لي فرصة التعرف على أصدقاء جدد، وتذوق أطباق جديدة، واكتشاف ألعاب ورياضات جديدة، وإعادة التعرف على أصدقاء لا أراهم سوى مرة كل عام، ومناقشة مختلف الموضوعات لساعات بلا توقف، والتقاط صور فوتوغرافية، والرسم والتلوين، والكتابة والقراءة، وتناول ثلاث وجبات يوميًا، والاستمتاع بأوقات الشاي والمرطِّبات، ومراقبة عجائب الطبيعة والإنسان، خلال رحلاتي يمكنني أن أسير على قدميّ طوال اليوم، وأنام بعمق طوال الليل، وأستطيع أن أقضي وقتي في الهواء الطلق وسط الطبيعة، أراقب الأشجار وأنصت إلى الطيور وأتنفس بعمق.

غير أن السفر إلى تركيا يوفر لي أكثر من ذلك؛ فهو يمنحني الوقت لأستغرق في أحلام اليقظة، خاصة أثناء رحلات الحافلة الطويلة، ويمنحني الوقت لأرتب الكتب في مكتبة حياتي ترتيبًا يلائمني، تساعدني هذه الرحلات الطويلة عبر السهول المترامية أن أفعل ذلك، فهي تمنحني

الوقت لأجلس مع نفسي في هدوء وأنصت إلى صوت أفكاري، ويساعدني السفر إلى تركيا أيضًا أن أتعافى من جراحي، فأحيانًا تمر على المرء لحظات يشعر فيها بقواه تخور، أو يشعر بالخوف من الخروج من خلف الستار للوقوف في دائرة الضوء على مسرح حياته المهنية، أو يشعر أن الحياة ستتوقف بعد فقد الحب، أو يشعر أن حقيبة مخاوفه وهمومه قد أثقلت كاهله، أو يشعر بالحنين لذلك الجزء المعنوي المفقود من حياته، أو يشعر بالوحدة والخوف يملآن حياته؛ في تلك اللحظات يساعد الطريق الترابي الخالي في التخفيف عنه؛ لأنه يدرك أنه حتى في هذه السهول الأناضولية الجرداء قد يرى مختلف صور الجمال، في هذا الطريق النائي عن كل ما هو مألوف يمكن للمرء أن يرى كل شيء واضحًا بمعزل عن حياته، من الغريب أن أجد متعتي في هذه الغربة، فهي تمدني بالسعادة والقوة لمواصلة السفر، وعندما أشعر بالخوف والوحدة والعزلة والشك وعدم الثقة في نفسي أثناء السفر أقهر هذا الشعور وأتغلب عليه، وأنا أفتخر بهذه الانتصارات الصغيرة التي أحققها؛ لأنها بمنزلة المطرقة التي تدقّ حائط شخصيتي لترأب صدوعه.

حينما يسافر المرء إلى تركيا، وإن كان منفردًا، يمكنه الشعور بالأمان أثناء تأدية هذه الأمور البسيطة، وبمقدوره أن يسترخي حقًا، وهو ما يستحيل أن أفعله في نيويورك حيث ينبغي أن أظل حذرة ومنتبهة على الدوام، في رحلتي عبر تركيا إبّان ذلك الفاصل السعيد بين الوطن واستكشاف المجهول عثرتُ على بلد مهيأ للمسافرين، مليء بالأيدي الرقيقة ووسائل الراحة وأماكن الفرار من الإجهاد والقلق.

سيدة ماري، تحدثتِ عن سمة أحببتها في صديقتك فاطمة، وهي روحها الآسرة: ''إنها تواقة جدًّا للتعرف على عادات البلدان الأخرى،

ولا تنحاز مطلقًا لبلدها كما يفعل أصحاب العقول الضيقة''، أنا أيضًا لا أريد أن يكون عقلي ضيقًا؛ ولهذا أسافر.

حقًّا هناك ذكريات سارّة ترتبط بالسفر إلى تركيا، ورسائلك الأولى من ''أدرنه'' تعكس حماسًا شديدًا ومتعة، ويمكنني استشعار سرورك الشديد لا باكتشاف المجتمع العثماني فحسب بل أيضًا بعالم السفر الواسع، لقد مررتِ بمجموعة واسعة من تجارب السفر والسياحة مثلي؛ إذ أقمتِ في إحدى قصور السلطان، كما أقمتِ في فندق شراغان الذي كان في السابق قصرًا سلطانيًّا، ورافقكِ إلى ''أدرنه'' مجموعة حرس من ٥٠٠ جندي إنكشاري، أما أنا فإن أيادي المساعدة التي امتدت إلي وأحاطت بي تكاد تكوّن جيشًا من الحراس الشخصيين، وتحدثتِ كذلك بانبهار عن الزخارف والأثاث المترف في القصور، وكم أتمنى لو أمكنك أن تري ترف قصر دولما بهجة الذي شُيد عقب رحيلك! حكيتِ كيف شاهدت السلطان وهو يمر في موكبه، وأنا أيضًا شاهدت شخصيات قياديَّة سياسية وصافحت رئيسة الوزراء السيدة تانسو تشيلر والسيد سليمان ديميريل أثناء رحلاتي، وتخبرنا إحدى أشهر رسائلك عن المأدبة التي أقامتها لك زوجة السلطان السابق، وأنا أيضًا جلست على مائدة الطعام مع شخصيات مهمة مثل عمدة إسطنبول خلال احتفالات اجتماع عام ١٩٩٥م للاتحاد الدولي لجمعية أمناء المكاتب، وتكشف لنا رسالة أخرى كيف ارتديتِ الملابس التركية لتيسير زياراتك للأماكن الدينية، وأنا أيضًا أمتلك زيًّا خاصًّا أرتديه في رحلاتي يغطي ذراعيَّ وساقيَّ ورأسي، ويساعدني على عبور الشوارع ودخول أي مبنى أشاء في سرية، وقد استمتعت بشراء بابوج ''خف شعبي'' وطربوش ومناديل وجوارب صوفية من السوق لأرتديها في غرفتي في الفندق، إن وصفكِ لجامع السليمية في أدرنة لا يضارعه أي وصف لأشهر

المؤرخين الفنيين المعاصرين، إذ تصوّرينه بدقة حتى أدق التفاصيل، وقد أسعدني أنك أقمت صداقة مع امرأة تركية هي فاطمة الجميلة؛ لأنني اختبرت بنفسي متعة أن أكسب صداقة أتراك وأزورهم مرات ومرات، اعتدتِ يا سيدة ماري الخروج في نزهات بالعربة إلى الريف المحيط بمنزلك، وبالمثل قمتُ بتوظيف سائق لأشرع في مغامرة العثور على أطلال كوباداباد أو الخان المفقود، عقب وصولكِ إلى إسطنبول وجدت إيقاعًا لحياتك يشبه إيقاع حياتي حينما أسافر؛ اتبعت نظامًا ممتعًا من القراءة، والكتابة، وتعلم اللغة التركية، والاستماع إلى الموسيقى، وزيارة الأسواق والشوارع والأحياء القديمة والحمامات والجوامع وتكايا الدراويش، والتنزه بالقوارب صعودًا في بحر البوسفور، كما ترين نحن نستمتع بنفس مباهج السفر في تركيا؛ وأنا أسير على خطاكِ بكل دقة.

يشع بريق سعادتك -وأنت سائحة- في رسائلك التي كتبتها من إسطنبول، وهناك فقرات معينة تتفوق على محاولات كتّاب السفر المعاصرين بلورةَ جوهر هذه المدينة الفريدة، أبحر قاربك صاعدًا بحر البوسفور بحدائقه وغاباته ومساجده المتراصّة مثل ''خزانة عرض تحف زخرفتها أمهر الأيدي''، ووصفكِ للزيارات التي قمت بها إلى قصر طوب قابي ''الباب العالي'' وآيا صوفيا وجامع السليمية وجامع السلطان أحمد والهيبودروم ''ساحة الألعاب البيزنطية'' ومولوي خانه ''مقر الدراويش المولويين'' ما زال ساريًا حتى اليوم.

استمتعت مثلك بمباهج كثيرة خلال رحلاتي في تركيا، وسبحت مثل كليوباترا في سِيدَة في ظل مسرح بيزنطي قديم، وشاهدت عروضًا في نفس المدرجات التي جلس فيها الأباطرة اليونان، وخرجت أستكشف العالم من نفس المدينة التي خرج منها الجغرافي الشهير سترابو.

مـن بيـن الأمور التي أسـتمتـع بها فـي تركيا بوجه خاص استكشـاف الأشـجار القديمـة، فكثيـرًا مـا اسـتظللت بالأشـجار العتيقة التـي زرعها السـلاطين في السـهول، وظلت صامـدة في وجه الأعاصيـر والمجاعات والحـروب، ويبلـغ عمـر أغلبها ٥٠٠-٦٠٠ عام، ما زالت هذه الأشـجار تقـف شـامخة حتى الآن؛ لتضرب لنـا المثل في المرونـة، أصبحتُ أدرك الآن معنى قول الأتراك ''لكل شجرة روح''، وسبب توقفهم أثناء حفلات الزفاف لتعليق شـريط زينة على الأشـجار، انطبـع عدد من هذه الأشـجار المهيبة في ذاكرتي، فصرت أتذكرها بوضوح كما أتذكر تفاصيل المساجد التاريخيـة مـن الداخل، ومن أهمها: الأشـجار الضخمة في مقابر المرادية الصوفية في بورصة، وشجرتا ساحة نزل ''تاش خان'' في مدينة مرزيفون ومجمـع بايزيد الثاني في أماسـيا، والشـجرة التي تقف كأنَّها حرَس خارج ''تشـيلي خـان'' في كرامـان، والشـجرة القديمة في بورصـة التي تفترش الطريق المؤدي إلى جبال أولوداغ، والشـجرة التي زرعها سـنان في ساحة جامـع ''آتيك واليدة'' في أوسكودار، وذات مرة تناولت الطعام في مطعم فندق في منطقة أغيردير مشـيد حول شـجرة، وكلمـا رأيت روحًا ضخمة مـن هـذه الأرواح فكـرت كيف نبتت وشـهدت أحداث تاريـخ تركيا منذ أيام السلطان سليمان القانوني وصولًا إلى أتاتورك وحتى عصرنا الحالي، وكيـف تحرص الغابات التركية الوطنيـة ببرامجها الرائعة على حماية هذه الأشجار والحفاظ عليها للأجيال القادمة.

تجولت في بلدان كثيرة، معروفة وغير معروفة، في مدن كبيرة مزدحمة وفـي قرى صغيرة مكونة من عشـرة بيـوت، وزرت قرى وبلدانا كنت فيها المرأة الوحيدة التي لا تغطي رأسـها، ومن المسـتحيل أن أسرد انطباعاتي الشـخصية الخاصـة بأكثر مـن ٢٥٠ مدينة وبلـدة وقرية زرتها فـي تركيا، فقائمةُ ما أسَرَّ لبّي طويلةٌ جدًّا، لكنني أقر أنني اكتسبت ثروة من الخبرات

والمتع والمباهج المرئية التي تشبع كل الحواس، مثلك يا سيدة ماري.

بقدر استمتاعي بقراءة وصفك لرحلاتك أحزنني عدم تمكنك من خوض التجارب الممتعة ''المخيبة للآمال'' المرتبطة بالسفر وحدك، سافرتُ داخل تركيا في سيارات أجرة وحافلات بين المدن، ولكلٍ منها مزاياها وعيوبها، إن شبكة الحافلات الممتازة التي تربط مختلف أجزاء تركيا اليوم ينبغي أن تكون مثالًا للكفاءة تحتذي بها كل أنظمة المواصلات في العالم، غير أن الأمور لم تكن بنفس الكفاءة منذ عدة أعوام؛ تضمنت طقوس السفر في الماضي مواقف حافلات تعمها الفوضى والهرج والمرج، ومواعيد وصول ومغادرة غير محددة، وباعة جائلين، وتغيير أماكن الجلوس باستمرار -كمن يلعب لعبة الكراسي الموسيقية- لضمان عدم جلوس امرأة بجوار رجل غريب، وتوقف الحافلة كل حين لالتقاط ثلاثة ركاب وعشر ذبابات من الطريق، والحر الرهيب، والمسافرين الذين يحملون صناديق كرتونية مربوطة بخيوط أو حقائب خيش أو حقائب رياضية مزودة بالمؤن من كل أنواع الأطعمة الخفيفة الممكنة من أجل الرحلة الطويلة؛ باختصار كانت تجربة السفر تجسد الطبيعة البشرية في ذروة نشاطها، وعلى صعيد آخر فالسفر بالسيارة يمنح المرء حرية كبيرة لمشاهدة المواقع البعيدة عن الطريق الرئيسة التي لا سبيل للوصول إليها، غير أن الطرق في تركيا تشتهر بالسائقين المتهورين؛ فقد ارتعبت ذات مرة حينما أجبرني جندي يحمل بندقية آلية أن أقف على جانب الطريق ليبتسم في وجهي ويقول: ''أتمنى أن يكون طريقك ميسَّرًا وسالكًا يا ضيفتنا الكريمة''.

هناك تجارب أخرى مخيبة للآمال لم تمري بها يا سيدة ماري؛ نظرًا لأنك نعمت دائمًا بصحبة المرشدين والمترجمين و٥٠٠ جندي إنكشاري؛ فعلى سبيل المثال كان ''مكتب السياحة'' مصدرًا مستمرًا

للحيرة والارتباك؛ إذ كانت مكاتب السياحة منذ ثلاثين عامًا ضعيفة المستوى إلى حدّ بعيد، فكانت أماكن متربة مغبرة ذات مقاعد بلاستيكية بالية ومائدة قهوة منخفضة تتناثر عليها بعض أدلة السفر الغريبة المطبوعة باللغة الأجنبية الوحيدة التي لا يمكن للمرء قراءتها، وحينما يدخل السائح يجد نفسه دائمًا العميل الوحيد في المكان، وبالرغم من رغبة المكاتب الصادقة في خدمة العميل فإن الموظفين لم يتمكنوا من تقديم خدمات ذات قيمة، بل قد يكون طلب المساعدة من الصيدليات المجاورة أكثر نفعًا لأنها كانت مصادر ممتازة للمعلومات والاتجاهات.

مما زاد الوضع سوءًا بالنسبة لسائح مسافر بمفرده باعة السجاد الذين يلاحقونه طوال اليوم، ويتبعون كل خطواته، ويباغتونه من الخلف كلما استدار، ويجبرونه في كثير من الأحيان على الفرار من الشارع والاحتماء بغرفة الفندق للهرب من مضايقاتهم، حتى إنني أشك في قدرة جنودك الإنكشاريين الخمسمائة على تفريق هذا الجمع القاسي من الباعة، في الماضي قبل اختراع ماكينات صرف النقود الآلية كان صرف العملة من المصرف عملية تستغرق نصف النهار، مع الحاجة إلى ملء عدة نماذج والوقوف في صفوف طويلة والإجابة على عدة أسئلة.

وأيضًا فبعض الأمور البسيطة قد تكون خطيرة أثناء التجول في تركيا؛ فأرصفة الشوارع الرخامية الجميلة قد تكون زلقة إلى حد التسبب في موتك، ومن جانب آخر فالأرصفة الإسمنتية مليئة بالحفر والبلاط غير المثبت الذي قد يتسبب في تعثرك، ونادرًا ما توجد حواجز جانبية على المنحدرات، أما أشدّ الأخطار فتكمن في مجموعات الأطفال الصغار الذين يحومون حولك كسرب من الحيتان التي تشتم رائحة دماء، زرت مدينة سيرت في أحد الأعوام فبدأ الأطفال يتبعوني بأعداد هائلة،

وحينما شعرت بالضياع وسألت رجلًا عن الاتجاهات أشفق عليّ وقرر أن يصاحبني لمساعدتي في العثور على المسجد الذي أبحث عنه، كان المسجد يقع في حي فقير من أحياء المدينة، وعندما وصلنا إليه كنا محاطين بأكثر من ٦٠ طفلًا أغلبهم من الصبيان بين سن الرابعة والتاسعة، زادت خطورة الأطفال المحتشدين الذين ظلوا يصرخون ويتقافزون ويتدافعون ويمسكون بالأغراض ويتجاذبونها ويقذفونها، وللمرة الأولى في حياتي خشيت أن تتقطع أطرافي من شدة الجذب، وكان الرجل أكثر خوفًا مني على حياتي ما زاد من رعبي، في تلك اللحظة قررت أن أجعل من نفسي لنفسي حارسًا إنكشاريًّا خاصًّا، وصرخت بأعلى صوت ''هذا يكفي!'' ونجحت الخطة، وتمكنا من شق طريقنا عبر هذا الحشد، أخشى أن تكون تلك آخر مرة يقدم فيها هذا الرجل العون لأي سائح يحتاج المساعدة، أليس أمرًا ساخرًا أن تكون المرة الوحيدة التي أشعر فيها بالخطر وأنا في تركيا سببها الأطفال!

هناك خطر آخر شائع جدًّا للأسف في تركيا؛ لا يمكنني أن أنسى مطلقًا الهزتين الأرضيتين اللتين شعرت بهما في جنوب تركيا، تركت أولاهما ١١٠ قتلى عام ١٩٩٨م وكانت بمنزلة نذير للمأساة التي وقعت في العام التالي.

بالرغم من كل التجارب المخيبة للآمال في السفر، فإن مشاهدة الريف التركي المذهل تعوض كل شيء، إن الطريق الترابي القادم من إنجيسو إلى أورجوب مثير إلى حدّ بعيد؛ فهو طريق ملتف يصعد إلى أعلى التل ليكشف فجأة عن مشهد آسر شامل لوادي جوريم في كابادوكيا، أما رحلة السيارة من نيدي إلى تشيفتيهان مرورًا بسلسلة جبال آلَاداغلار وبولكار عبر ممر صقلية الشهير الذي عبره الصليبيون ويعد من أندر ممرات جبال طوروس فقد أتاحت لي فرصة لرؤية بعض من أجمل المشاهد التي رأيتها

فـي تركيا وفـي العالم كله، وفي الطريق إلى أرتفيـن الذي يمر عبر حقول أرداهان المكسـوة بالعشـب الأخضـر والأزهار البرية شـاهدت الأفراس البريـة تعـدو بِحُريّـة، ومهورهـا تتراقـص خلفهـا، ومن أحـب الرحلات إلـى قلبـي الرحلـة المذهلـة للصعود من توقـات إلى سـيواس عبر طريق تشاملوبيل، الذي يتميز بتقديم مشهد بانورامي للبلد كله من أعلى، وربما أمكنك أن ترى كلاب الكانجال تحرس الغنم في الحقول الطينية بالأسفل إذا أنعمـت النظر، أسـتمتع بالفعل بتلك السـاعات التـي أقضيها في هذه الطـرق، ولا يكسـر الصمت سـوى صوت الريـح تداعب نافذة السـيارة، وأعـود مـن تلـك الرحـلات محملـة بكثيـر مـن الذكريات عن السـكون والتناغـم، فأسـتعيد هذه اللحظات المضيئة في ليالـي المدينة القاتمة التي تحبسني جدرانها الإسمنتية، وأتذكر هذه الرحلات المثالية بالسيارة وتلك العزلة الخلابة التي تشكل جزءًا عزيزًا خالدًا من ذكرياتي أثناء السفر.

سـيدة ماري، يمكنني استشعار مدى سعادتك بالحياة في تركيا، وكما قلتُ في رسالة سابقة وسأظل أقول: لا يمكنني أن أجد الكلمات المناسبة للتعبيـر عـن إحسـاس السـعادة الفطريـة والرضـا اللذين أشـعر بهما وأنا في تركيا، تتجلى حقيقة شعورك بوضوح في رسائلك الأخيرة من إسطنبول التـي يشـوبها حـزن دفيـن لاضطـرارك للرحيل، ''أسـتعد حاليًـا لمغادرة القسـطنطينية، ويؤسفني ذلك؛ فقد اعتدت على الهواء هنا وتعلمت اللغة، أشعر بالراحة هنا''، وعدتِ إلى وطنك محملة بنبـع من الذكريات الخالدة مثلمـا أفعـل كل مـرة، يمكنك أن تنهلي منه متى شـئت، أما أنا فقد بكيت فـي المطـار، وبكى الآخـرون لرحيلي مـع أنني لم أبق معهم سـوى أيام قليلة، وأنا أيضًا شـاهدت بعض النسـاء تسكبن الماء على عتبة بابهنّ تيمنًا بـأن تسـير رحلتي بسلاسـة، وأنـا أيضًا طمأنني وكيل سـفري لـدى رؤية دموعي قائلًا: ''ستعودين إلينا مرة أخرى، أعدك بذلك!''

لكنك اضطررت للرحيل، ولدى عودتك إلى وطنك عرفت مرة أخرى معنى أن تكوني مسافرة، ومع هذا سعدتِ بالعودة إلى الوطن؛ فبالرغم من حبنا للسفر واعتزازنا بالبلدان الأجنبية لا يوجد مكان يضاهي الوطن، إن إدراك ذلك والسعادة بالعودة للوطن من أمتع مزايا عبور الجسور، أشعر أن بمقدوري تذوق المشروبات الباردة التي تناولتها كما تصفينها في إحدى أكثر رسائلك تأثيرًا:

"لا يسعني أن أنظر بحياديّة إلى وطني؛ لا بد أنّ الانحياز سمة أَضْفَتْها علينا الطبيعة لتفادي الحيرة، وهي التأثير الناتج عن التعطش الطموح للمعرفة الذي يمنعنا تكويننا من الاستمتاع به، كل ما نحصل عليه منها هو رغبة عقيمة في دمج المباهج ووسائل الراحة المختلفة المتوفرة في أجزاء متباينة من العالم لا يمكن لها أن تجتمع في مكان واحد.

بعد أن قرأت كل ما تتيحه اللغات التي أتقنها، وبعد أن أفنيت بصري في الدراسة منتصف الليل، أتمنى راحة البال التي تنعم بها خادمة تحلب الأبقار، ورديّة الخدين، لا يداخلها شك وهي تنصت بخشوع إلى المواعظ؛ فشعورها تجاه واجبها في الحياة لم تربكه التساؤلات التافهة التي يطرحها العلماء، الذين قد يكونون أكثر منها علمًا، لكنهم يظلون في النهاية جاهلين.

عقب أن تجولت في أجزاء من آسيا وأفريقيا وأغلب أوروبا، أعتقد أن النبيل الإنجليزي الحقيقي هو من يجد أن مذاق الثمار الإفريقية لا يضاهي مذاق التفاح الذهبي، وأن طعم اللحم الإيطالي لا يوازي طعم قطعة من اللحم البقري المحلي، وباختصار لا توجد متعة كاملة في الحياة خارج إنجلترا العريقة، عسى

أن يظـل هذا هـو رأيي فيما بقي من حياتي، ونظـرًا لأنني مضطرة للرضا بالقدْر الضئيل من ضوء الشـمس الذي يصلنا فليتني أنسـى شمس القسطنطينية المفعمة بالحياة".

إنّ العـودة إلـى الوطـن تخفف بالفعـل من حدة الحزن لفـراق تركيا، غيـر أن هـذا البلد قد غـدا بمنزلة وطن لـكِ ولي، ونحـن ممتنون لذلك، لا أهتـم بالانطـلاق فـي رحلات حـول العالم لاكتشـاف ملايين البلاد، ولا أظن أن القيام بذلك سـيثري شـخصيتي، فأنا لا أسـعى للمباهاة بعدد الدول والقارات التي زرتها، بل أحلم بأن أسـتمتـع بالسـفر على طريقتي، وأريد أن أكون سـعيدة جدًّا في مكان اعتبرته وطني، مكان يجعلني ممتنة للعودة إلى وطني الحقيقي، وقد منحني السفر إلى تركيا هذه المتعة.

في النهاية كيف أجيب على السؤال حول سبب سفري إلى تركيا مرارًا وتكرارًا! ماذا يجذبني إليها كل عام كأنني حاجّ يؤدي شعائر مقدسة؟ لأكون صادقة لا أظن الأمر يتعلق فقط بالأحجار المعبِّرة، والجسـور، والأشـجار البالغة ٥٠٠ عام، والطريق المفتوح؛ بل ببساطة لأن تركيا مليئة بالأتراك.

صديقتكم

كاثرين برانـنج

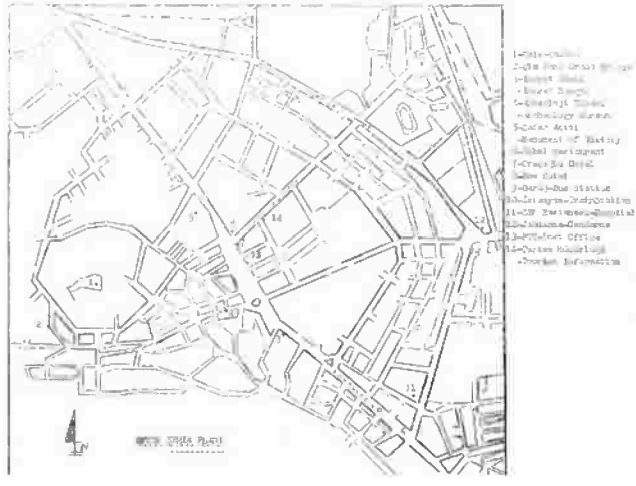

خريطة مرسومة باليد لمدينة أفيون عام ١٩٨٣

شجرة على طريق أولوداغ في بورصة

خبر صحفي حول شجرة تبلغ ألف عام بالقرب من أرزينجان

في الطريق بالقرب من أرضروم

شجرة الدلب في بورصة

قطار ''الترام'' في قونيا

İLLER

01 Adana	26 Eskişehir	51 Niğde
02 Adıyaman	27 Gaziantep	52 Ordu
03 Afyon	28 Giresun	53 Rize
04 Ağrı	29 Gümüşhane	54 Sakarya
05 Amasya	30 Hakkari	55 Samsun
06 Ankara	31 Hatay	56 Siirt
07 Antalya	32 Isparta	57 Sinop
08 Artvin	33 İçel	58 Sivas
09 Aydın	34 İstanbul	59 Tekirdağ
10 Balıkesir	35 İzmir	60 Tokat
11 Bilecik	36 Kars	61 Trabzon
12 Bingöl	37 Kastamonu	62 Tunceli
13 Bitlis	38 Kayseri	63 Şanlı Urfa
14 Bolu	39 Kırklareli	64 Uşak
15 Burdur	40 Kırşehir	65 Van
16 Bursa	41 Kocaeli	66 Yozgat
17 Çanakkale	42 Konya	67 Zonguldak
18 Çankırı	43 Kütahya	68 Aksaray
19 Çorum	44 Malatya	69 Bayburt
20 Denizli	45 Manisa	70 KARAMAN
21 Diyarbakır	46 K. Maraş	71 Kırıkkale
22 Edirne	47 Mardin	72 Batman
23 Elazığ	48 Muğla	73 Şırnak
24 Erzincan	49 Muş	74 Bartın
25 Erzurum	50 Nevşehir	75

أرقام اللوحات المعدنية في المقاطعات التركية

منطقة تسجيل الدخول، الخطوط الجوية التركية في مطار ''جون إف كينيدي''
في نيويورك

مرفأ سينوب

ترسانة سفن هاليتش (الخليج)

مكتب تذاكر محطة الحافلات، مالاطيا

فندق أونيه على البحر الأسود

أغيردير

قرامان

قوس قزح بالقرب من أرزينجان